الفصل الرابع

منتخبات من آثار أبي حيان التوحيدي

١ ـ أبو حيان الفيلسوف

رسالة الحياة

نظر أبو حيان إلى الحياة والمعاد نظرة الفيلسوف المفكر والخبير المجرب وتدبر أقوال الفلاسفة والحكماء قبله فاستخلص من ذلك كله بحثاً سامى الموضوع عميق القرار سماه « رسالة الحياة » وهذا بعض ما جاء فيها :

وأعودُ فأقولُ فى شرحِ أصْنافِ الحياةِ بمبلغِ العلمِ الذى عندى ، فإذا فرغتُ منه أضفتُ إلى جُمْلته فِقَرًا شريفة ، بعبارات مألوفة ، على قدر الرِّسالة فإنّ تلك أشبهُ للحال ، وأجْلَبُ للفائدة ، وأحْسَمُ لمادّةِ التكلّف ، وأبْلَغُ إلى الغرض المنحوّ ، وآتى على المُرادِ المقصودِ ، إن شاء الله تعالى .

أصْنافُ الحياةِ عَشْر : ثمانية مُتَّعَتْ بها البَشَرُ على التفاوتِ الواقعِ بين الحىّ والحىّ ، كما سنبينُ من بَعْد ، واثنان مُرْتَقيانِ إلى ما يشكل العلم به إلاّ فى الجُملة ، ويَعْتَاصُ المرادُ منه إلاّ مع التَّسليم ، فالصّنفُ الأوّل يقالُ له حياة الحِسّ والحركة . والصّنف الثانى يقالُ لهحياةِ العلمِ والبصيرة والصّنف الثالث يقالُ له حياة العملِ والكَدْح . والصّنف الرّابع يقالُ له حياة الخُلُق والسَّجيّة . والصّنف الخامس يقالُ له حياة التدين والسَّكينة . والصّنف السادس يقالُ لهحياة الكمال الأول والصنف السابع يقالُ لهحياة الظن والتوهُّم ويقالُ له أيضًا حياة الذكر . والصنف الثامن يقالُ له حياة الكمال الثانى وهى حبُّ العافية .

فهذه ثمانية أصناف، ويتدرّجُ فيها الواحد بعد الواحد من البشر بحسب السهام العلويّة والمكاسب السفليّة والتأهيل الإلٰهى بالمواهب السابقة، والتّكامل البشريّ والمساعى السّابقة. والصّنفان الآخران أحدهما حياةُ الملائكة والآخرُ ما يقال له إن الله عزّ وجلّ حيّ، وهاتان الحياتان نقتنعُ فى أمريهما بالكتابة عنهما. لإشكالِ الكُنْه فيهما ولإضرابِ العقلِ عن تحديدِهما وحَرَجِ الصدر عن توهّمهما وتمثيلهما فيك فنقول :

أما الحياةُ الأولى فهى حياةُ الإنسان التى بها يُحِسّ ويتحرّك، ويلذّ وينْعَم، ويشتكى ويألم، وهذه مشتركةٌ أعنى أنّ ضُروبَ الحيَوان من فرس وحمارٍ وخنزيرٍ وقردٍ وغيرِ ذلك لها هذه الحياةُ التى تشتملُ على الحسّ والحركة والقوم إلى الغذاء، والحاجة إلى البقاء، وبها يتعلّقُ إلى تحلّل المنحلّ منها، وبها يتشوّقُ إلى استجلابِ أمثاله إليها، ولا تفاوتَ فى تلك الحياةِ بين هذه الضّروب بل كلّها تجتمع فى الصّفات، ويقبل بالطبع الأول هذه الحالات، فلهذا لا يقال هذا الحىُّ أحيًا من هذا الحىّ، وقد يُقال زيدٌ أحيًا من عمرو أى أنّه أكثر حياةً منه : ولعله يقال أيضًا : هذا الحيوانُ أحيًا من هذا الحيوان، أىّ أطول مدةً فى الحياة، فأما فى نفسِ الحياةِ فهى الجنسُ والنوعُ والشخصُ واحد، فقد بانَ أنّ الصنفَ الأول من أصنافِ الحياةِ قد اشتركَ فيه، وهذا الاشتراكُ وقعَ بالحكمةِ كالأساس لباقيها، وكالغرسِ لكل ما يدخل فى حوْزتِها.

وأما الحياةُ الثّانية، فهى حياةُ العلمِ والمعرفة والفهْمِ، والدّراية والحفظ والرويّة، والحكمةِ والبحثِ والاستنباط، والمسألةِ والجواب، وهذه الحياةُ تُستفادُ بالتّأييد الإلٰهى، والاختيار البشريّ، مع النيةِ الحسنة، والسّعىِ الدّائم، والمحبّةِ النفسيّة، واللطافةِ الروحيّة، والرّقّةِ المزاجيّة.

فأمّا الحياةُ الأولى فهى مع الجبِلّة والفِطْرة، وهى صورةُ الطّينة ولذلك وقع فيها الاشتراك من الجميع، وهذه الحياة هى الهادية لصاحبها إلى نيْل

الكمال وبلوغِ الآمال. والتّفاضل الواقع في هذه بحسب الحظّ والاطّلاعِ والسلوكِ والزّماع[1] فإنْ عَرَضَ النقصُ في سلوكِ هذه الحياة، فإنّ صاحبها يصير شبيهًا بضُروبِ الحيَوان التي وصفناها من قبل، وإن كان أرفعَ منها في الجواهر، والسِّنخِ، والعنصرِ، والشَّكْلِ، والنفس، وإن استمر صاحبُ هذه الحياة على أخذ الفوائد المُجْدية، واقتباسِ المعارفِ المحقَّقة صار شبيهًا بالملائكةِ الذين بسائطُهم مركَّبةُ على تركيباتِهم، وجسميَّتهم ملوكةٌ بروحانيَّتهم، وكثافتُهم مغلوبةٌ بلطافتِهم. فعلى هذا إنْ قيل: إن العالِمَ أحْيَا من الخامِل، أي أكثر حياةً في هذهِ الحياة التي فسَّرنا لم يكن منكرًا ولا بعيدًا.

وأما الحياةُ الثالثةُ فهي حياةُ العملِ الصالح بالرفعِ والوضع، والأخذِ والعطاء، والعشرةِ والصداقة، والوَداعةِ والرِّعاية، وحسنِ العهدِ وصدقِ الوعد، وهذه الحياةُ إذا انضمّت إلى الحياتيْن الأوليَيْن كمّلت الإنسان، وزادت في قيمته، وعلَّت من درجته، ونالته شرفًا أبديًّا، وعزًّا سرْمديًّا، وألبسته جلبابَ البقاء، وسلَّكته إلى كَنَف السعادة، وخلَطته بزُمْرة الملائكة.

وأما الحياةُ الرابعة فهي حياةُ الدِّيانة والسكينة، وبها ينالُ صاحبُها خيْرَ العاجلة؛ لأنّ سرْبال الدِّين صافٍ، وقُلَّته عليَّة، وعُقْباه مأمولة، وسريرته ظاهرة، وعلانيته مرضية، فبالتديُّن يكملُ النَّاقص، ويزدادُ الراجح، وينجو المُشْفِي، ويَبْرأُ العليل، ويرشد الغوى، ويستبصرُ العميّ، ويهتدي الضال، ويستقيمُ المعوجّ، ويُدْرَك الفائت، ويستبانُ الغَيْب، وتمجيدُ الدينِ طويلٌ لا غايةَ له فيقفَ عندها، ولا حدّ له فينهي إليه فلذلك نبسط عُذْرنا في الإمساك عنه بعد الدلالة على نصّه.

فأمَّا الحياةُ الخامسة فهي حياةُ الأخلاقِ الّتي مَنْ هذّبها، ومَنْ تهذّب بها، ونفى خبيثَها، وتحلّى بطيِّبها، هَنُؤ عيشُه، وعيشُ من يعايشه، وصفت سَريرتُه من الكَدَر، وبرّ سعيُهُ في كلِّ ما حلا وأمرّ، وإنما أفْرَزْنا

---

(١) الزماع: المضاء في الأمر والعزم عليه.

الأخلاقَ من الدّيانةِ والسكينةِ والعملِ الصّالح ، لأن الخُلُق تابعٌ للخَلْقِ بالمضارعةِ اللفظية ، وهو ينقسمُ بين ما يزول بالرّياضة كلّ الزّوال ، أو يقلّ بعضَ الإقلال ، وبين ما يكونُ صورةً للنفس لا يطمع فى البراءةِ منه ، والطهارةِ عنه ، وقد صنَّف الحكماءُ الأوّلون والآخِرون كتبًا فى الأخلاقِ وذكروا أعيانَها بأسمائِها وصفاتِها ، وحدودِها ورسومِها ، ومجمْلها ومفصّلها ، ودلّوا على الحَسَن والقبيحِ منها ، ودعَوْا إلى التحلى بأحسنها ، والتعرّى من أسْمَجِها ، فضربوا لها الأمثالَ ، وسحبوا عليها ذيولَ المَقَال ، فلذلك كفت الإشارة فى الجملة إليها دون التَّفْصيل الدّال على خلقٍ خلقٍ منها ، ولو ميَّزنا الأخلاق بالشرح فى هذا المكان للزم أيضًا أن نشرح الدّين والعمل وجميع ما سلف اللفظ به ، وأتى الذكر عليه .

وأمَّا الحياةُ السَّادسة فهى أن نستجمعَ من جملةِ الحَيَوات المتقدّمة ، لأنه كما رسمنا كلَّ واحدةٍ منها باللفظِ الوجيز ، والعبارةِ الخاصَّة ، ولكن فى هذا المكان على صورة أُخرى يحدثُ لها بالتَّناظُم ، والتّلازُم والاجتماعِ والتأليف لم تكن من قبل ، لأن الأشياء المنوّهة ، متوزعةً مخالفة للأشياءِ المتقدّمة ، وكذلك الأشياء المتباينة ليست كالأشياءِ المتلائمة ، وهذا عيان وهو غنىّ عن البُرْهان . فمن فازَ بهذه الحياةِ علا شأنُه ، وشَرُفَ مكانُه ، وبلغ إلى فَجْوةِ النَّجاة .

وأمَّا الحياةُ السَّابعة فهى حياةُ الظنّ والتوهّم ، أعنى ما يغلب على الإنسان من الذّكر والصّيت والشهرة بأىّ وجهٍ كان ، ولذلك قال الأول : إن الثَّناء هو الخُلد . ولمَّا شعر الإنسانُ بالبقاء ، جَدّ فى طلبه بكلّ وجه ، وشام[1] بَرْقَه بكل طَرْف ، وحلم به فى كلِّ نُعاس ، وتمنّاهُ فى كلّ انتباه ، وكل أخذ يتوهم نوعًا غيرَ نوعِ صاحبه بقدر مزاجِه ونقصه وزيادته وعقلِه ورأيِه ، وبَدِيهته ورويّته وعلى هذا وهم النَّاس . وصاحبُ هذا الغرضِ لما غفل عن البقاء الحقّ ، سَعَى فى كسبِ الحياة التى كأنَّها بالذكرِ والصّيتِ والاشتهار ، كالحياةِ المألوفةِ بالحسّ والحركة ، ومن هذا الضَّرْب طلب

---

(١) شام يشيم البرق : نظر إليه أين يتجه وأين يمطر.

الإنسان النَّسلَ ، لأنه يتخيَّل لبقاء النوع شبهًا لبقائه الشخصى ، ولهذا يقال نَسْله أى نَسَل منه ، وسُلالتُه أى سُلَّ منه ، ومُصاصته أى مصَّ منه ، والفرق بين الحياة والبقاء ، والعيش والدَّوام ، والثَّبات والخُلد ، والكون والوجود مشهورٌ واضح . فإن تركنا ذكره ميلاً إلى تخفيف الرِّسالة جاز ، وإن هَشَشْنَا للإشارة إليه ساغ ، ونقولُ فى ذلك بعد هذا الشَّرح عليه ما يتيسَّر ، وإن كان غيرَ آتٍ على الغاية . أمَّا البقاءُ فهو أعمُّ من الحياة ، لأنا نقولُ فى الحىِّ باقٍ ، وفى غير الحىِّ أيضًا نقول : باقٍ ، والحياةُ أدْخَل فى الحسِّ لأنَّها أعْلَقُ بالحركة ، والباقى قد يكون بحركة وغير حركة ، فأمَّا العيشُ فإنه أشدُّ لطافةً بمادة الحياة ، وكذلك يقال : خرج فلان فى طلب المعاش . فأما الحياةُ فقد كانت قبلَ هذا الخروج ، ولذلك يقالُ فى الله تعالى حىٌّ ولا يقال عائش .

وأمَّا الحياةُ الثامنة فهى حياةُ العاقبة ، وهى تُنالُ بعد المفارقة التى تسمَّى الموت ويستفظعُها الجمهور ، والاجتهادُ والسَّعْى ، والكَدْح والدَّوْب ، والاعتمادُ والتجمُّل والتكلُّف ، والقيامُ والقعود ، والعبادةُ والزهادة ، والتعب والمشقَّة والقلق ، والسؤال والجواب والاستعانة ، كلُّها لهذه ، وإنما احتيج إلى جميع ما سلَفَ القولُ فيه من أجلها لأنها الغرضُ الأوفى وإليها المنتهى ، وهى بالتَّمثيل شخصٌ وما سواها ظِلٌّ ، وعَيْنٌ وما عداها أثر ، وبقظة وما قبلها حُلُم ، وإنما كان كَدْحُ الفلاسفة اليونانيين والإلٰهيين والطبيعيين والمتقدِّمين والمتأخرين . . . بهذه الحياة الجامعة بين السرور والبقاء السرمدىِّ فى حظيرة القدس ومبرك الأُنس ، حيث لا يتعذَّر مطلوب ، ولا يُفْقَد محبوب ، حيث الطمأنينة والرَّوحانية عند ربوة ذات قرار ومَعين ، وحيث لا عبارةَ لنا عن كُنْهه لأنه بلدٌ لا عهدَ لنا به ، ولا أُلفةَ بيننا وبين شكله ، وإنَّما شعرنا بهذا كله بنور إلهى سَرَى إلينا فشاع فينا ، ووجدناه يقينًا لا ريبَ فيه ، وشهدناه عيانًا لا مِرْيةَ به ، والعيانُ العقلى فوقَ القياس الحسِّى ، لأن العقلَ مولى والحسَّ عَبْد ، وشهادة المولى مقدَّمة على شهادة العبد ، فلذلك عرَّينا أنفسنا جُهْدَنا

وطاقتنا عن كل أصفَر وأحمر ، وعن كل حلوٍ وحامض ، وعن كل لين وناعم ، وعن كل زِبْرِجٍ رائق وفاخر فائق . وفى الجملةِ عن كلّ ما أوثق القيد ، وأوْبَقَ النفس ، وأوقع الدين ، وبالغَ فى اجتلابِ الهلكة ، نعم ورفعنا قرناء السوء من داخلٍ وخارجٍ رغبةً فى تلك الحياة ، وشوقاً إلى هذا الملكوت ، ووجداً بهذه الغبطة ، وطرَباً إلى هذا النَّسيم ، وشقّاً للجيب على هذه النعمة ، تدرّجاً إلى هذه العاقبة . ولعمرى إن من سافر إلى بلدِ العدل والأمن والخِصْب ، مرّ فى طريقه على كل مشقّة وقلة أعوان وجَدْب ، وما هذا والله بالصعب ولا بالشَّديد ، مع هذا العمرِ القصير ، والعيشِ العسير ، والعوارضِ المؤذية ، والشَّدائد المعترضة والآفاتِ المترددة . نسأل الله الذى بيده ملكوتُ كل شىء ، أن يحوّلنا من هذا العَناء المحشوّ بالعَناء بعد العناء ، إلى ذلك الجِوارِ المكنونِ بالقرار بتيسيرٍ وتسهيلٍ ، ورضى قلب ، وتسليمِ نفس ، ورقّة بال ، وفؤادٍ مجيد قريب مجيب .

فهذا شرح أصنافِ الحياة الثمانية على ما جادت القريحة ، وساعدت العبارة عليه ، فأمّا الحياتان الباقيتان اللّتان إحداهما للملائكة ، والأخرى التى بها يقالُ لله تعالى جده حىّ ، فليستا من الأصناف التى يَلِجُ الوهم فى كنهِهِا ، أو يُلِمُّ النطقُ بحقيقتها ، ونعوتُها لم تقعْ إلينا جملةً فى عرضِ التَّسليم والتَّعظيم ، وكم من جملة نَبَا التفصيلُ عنها ، وكم من تفصيلٍ وقفَ عن جملته البيان ، ولهذا حَسُنَ أن نَسْلوَ عن كلِّ فائت من تلك المعان ، ونتعلّلَ بما وضَحَ لنا فى هذا المكان ، ولا نتكلَّفَ ركوبَ البحر بلا سفينةٍ صحيحة ، ولا آلة حاضرة ، ولا ملاّحٍ ماهر ، وذلك الجرم محروسٌ من إشراق الوهم[١] .

---

(١) «رسالة الحياة» ص ٥٥ .

أثر الطبيعة والصناعة

وهذا موضوع فلسفي آخر يعرض فيه أبو حيان للمواهب التي يجمل الله النفس بها ولما تحتاج إليه بعد ذلك من الصقل والتهذيب قال :

خرج أبو سليمان يومًا ببغدادَ إلى الصَّحْراء ، بعضِ أيَّامِ الرَّبيع ، قصدًا للتفرُّج والمؤانسة ، وصَحِبْتُهُ ، وكان معنا أيضًا صبيٌّ دونَ البلوغ ، جَهْمُ[1] الوجه ، بغيضُ المحيَّا ، شتيمُ المنظر ، ولكنَّه كان مع هذه العورةِ يترنَّم ترنُّمًا نديًّا عن جرمٍ ترف ، وصوتٍ شجٍ ، ونغمةٍ رخيمة ، وإطراقٍ حُلْو . وكان معنا جماعةٌ من طرَّاق المحلة ، فلمَّا تنفَّس الوقتُ أخذ الصبي في فنِّه ، وبالغ أقصى ما عنده ، فترنَّح أصحابُنا وتهادَوْا وطربوا . فقلتُ لصاحب لي ذكيّ : أمَا ترى ما يعملُ بنا شجن هذا الصَّوت ، وندا هذا الحلْق ، وطيبةُ هذا اللحن ، وتفنُّنُ هذا النَّغَم ؟

فقال : لوكان لهذا من يُخَرِّجهُ ويُعْنى به ، ويأخذُه بالطَّرائقِ المؤلَّفة والألحان المختلفة ، لكان يظهرُ أنَّه آية ، ويصيرُ فتنة ، فإنه عجيبُ الطبع ، بديعُ الفن ، غالب الدين والشرف .

فقال أبو سليمان فلتة : حدِّثوني بما كنتم فيه عن الطبيعة ، لِمَ احتاجت إلى الصِّناعة ؟ وقد علمنا أن الصِّناعةَ تحكي الطبيعةَ وتروم اللَّحاقَ بها والقربَ منها ، على سُقوطها دونها ؟ وهذا رأيٌ صحيح وقولٌ مشروح ، وإنما حكتها وتبعت رسْمَها وقصَّت أثرَها لانحطاط رتبتها عنها ، وقد زعمت أن هذا الحدث لم تكفه الطبيعة ولم تُغْنِه وأنها تُعَنِّيه وأنها قد احتاجتْ إلى الصِّناعة حتى يكون الكمال مستفادًا ومأخوذًا من جهتها ، والغاية مبلوغة بمعونتها وإصدارها .

فقلنا له : ما ندري وإنها لمسألة !

فقال : فكروا .

---

(١) جهم : عابس .

فعدنا له وقلنا : إنّا قد ثلجنا ، ولو مَتَنْتَ بالبيان ، ونشطتَ لنشرِ الفائدة كان ذلك محسوبًا فى بيض أياديك وغُرَرِ فضائلك ؟

فقال : إن الطبيعة إنما احتاجت إلى الصناعة فى هذا المكان ، لأنّ الصّناعة ها هنا تستملى من النفس والعقلِ وتُملى على الطبيعة، وقد صح أن الطبيعة مرتبتها دون مرتبة النفس ، تقبل آثارها ، وتمتثلُ أمرها ، وتكملُ بكمالها، وتعملُ على استعمالها ، وتكتب بإملائها ، وترسم بإلقائها ، والموسيقى حاصلٌ للنفس وموجودٌ فيها، على نوعٍ لطيف وصنفٍ شريف ، فالموسيقار إذا صادف طبيعةً قابلةً ومادةً مستجيبةً ، وقريحةً مواتية ، وآلةً منقادة ، أفرَغَ عليها بتأييدِ العقل والنفس لبوسًا مؤنقًا، وتأليفًا معجبًا ، وأعطاها صورةً معشوقة ، وقوّتَه فى ذلك بمواصلةِ النفس النّاطقة ، فن ها هنا احتاجت الطّبيعةُ إلى الصّناعة ،لأنها وصلت إلى كمالِها من ناحية النفس الناطقة بواسطة الصناعة الحادثة التى من شأنها استملاءُ ما ليس لها وإملاءُ ما يحصل فيها ، استكمالاً بما تأخذُ ، وكمالاً لما تُعطى[1] .

الشوق والحنين

الشباب والشيخوخة مرحلتان من مراحل العمر إذا وصل الإنسان إلى المرحلة الثانية منهما تشوق إلى الأولى فى تلك البواعث التى تدفعه إلى الشوق والحنين ! أجاب أبو حيان عن هذا فى أحد الأسئلة والأجوبة التى تبادلها هو ومسكويه قال سائلا :

ما السّببُ فى اشتياقِ الإنسان إلى ما مضى من عمره حتى إنّه ليَحِنُّ حنينَ الإبل، ويبكى بكاءَ المتململِ ،ويطُولُ فكرُه بتخيّله ما سلَفَ ؟

وبهذا المعنى هتَفَ الشاعر فقال :

لم أبكِ من زمنٍ ذممتُ صروفَه ... إلاّ بكيتُ عليهِ حينَ يزولُ

وقال الآخر :

رُبَّ يومٍ بكيتُ منـــه فلمّا ... صرتُ فى غيرهِ بكيتُ عليـــه

---

(١) المقابسات ص ١٨ .

وقال الآخر :

وأرجو غـداً فإذا مـا أتى بكيتُ على أمسِـه الذّاهِبِ

هذا العارضُ يَعترى وإن كان الماضى من الزّمان فى ضيقٍ وحاجة ، وكربٍ وشدّة ، وما ذاك كذاك إلا لسرٍّ للنّفْس ، الإنسانُ غيرُ شاعرٍ به ، ولا واجد له إلاّ إذا طال فَحْصُه ، وزال نقصُه ، واشتدّ فى طلب العلم تَشْميرُه، واتّصَل فى اقتباس الحكمة رَوَاحُهُ وبُكُورُه ، وكانت الكلمةُ الحسناءُ أشرفَ عنده من الجارية العذراء، والمعنى المُقَوَّم أحب إليه من المال المكَوَّم ، وعلى قدر عنايته يَحْظَى بشرف الدَّارَيْن ، ويتحلى بزينة المتحلِّيَيْن .

الجواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله — :

ليس يشتاق إلى الشّباب والصّبا إلاّ أحدُ رجلين :

إمّا فاقدُ شَهَوَاتِه ولذّاتِه التى سَوَّرَتْها وجدّتُها وقتَ الشّباب .

وإمّا فاقدُ صحّتِه فى السمْع والبصر ، أو بعضِ أعضائه التى قُوَّتُها ووفُورُها زَمَنَ الصّبا وحين الحداثة .

والمعنى الأول أكثرُ ما يُتَشَوَّقُ ، فإنّ المكْتَهِل والمُجتمِع ومَنْ بلغ الأشُدّ الذى لا ينكر شيئاً من حواسّه يتشوّقُ إلى الصّبا ، والشّيخُ لا يعدَمُ من نفسه ورأيه وقوّة عقله شيئاً ممّا كان يجدُه فى شبابه ، اللّهمّ إلاّ أن يهرمَ ويلحقه الخَرَفُ ، فحينئذ لا يُذْكَرُ بشىء من التشوّق ، ولا يُوصَفُ به ، ولا يُحْتَجّ برأيه .

وهاهنا سببٌ ثالثٌ يُشوّق إلى الصّبا ، وهو أن الأملَ حينئذ فى البقاء قوىّ ، وكأنّ الإنسانَ ينظرُ أمامَه حياةً طويلةً ، فكلّما مضى منها زمانٌ تيقّن أنّه من أمَدِه المضروب، وعمره المقسُوم ، فاشتاقَ إلى أن يستأنف به طمعاً فى

البقاء السرمدي الذي لا سبيل للجسد الفاني إليه .

إلا أن المعنى الأول هو الذي ذهب إليه الشعراء فأكثروا فيه ، وقد صرحوا به وذكروه في أشعارهم .

والمتشوق إلى شهواته صورته عند الحكماء صورة من أعتق فاشتاق إلى الرق ، أو صورة من أفلت من سباع ضاربة كانت مقرونة به فاشتاق إلى معاودتها وذلك أن الشاب تهيج به قوى الطبيعة عند الشهوة وعند الغضب حتى تغمر عقله فلا يستشير لبه ، ولا يكاد يظهر أثر العقل عليه إلا ضعيفا .

وقد بينا فيما تقدم من المسائل أن فضيلة الإنسان وشرفه في الجزء الإلهي منه ، وإن كان الجزء الآخر ضروريا له .

فقد بان أن السن التي تضعف فيها قوى الطبيعة حتى يقتدر عليها العقل فيزمها ، ويجرها ذليلة طائعة غير متأبية ولا هائجة — أفضل الأسنان ، والرجل الفاضل الصالح لا يشتاق من أشرف أسنانه إلى أخسها .

والدليل البين على أن الأمر على ما حكيناه — أن الشاب العفيف الضابط لنفسه ، القوى على قمع شهواته مسرور بسيرته ، وإن كان في جهد عظيم ، ومحكوم له بالفضل ، مشهود له به عند جميع أهل العقل ، وأنه إذا كبر وأسن لم يشتق إلى الشباب ، لأن ضبطه لنفسه ، وقمعه لشهواته أيسر عليه وأهون . ومن كان فلسفي الطريق ، شريعي المذهب ، لم تعرض له هذه العوارض — أعني التلهف على نيل اللذات ، والأسف على ما يفوته منها ، والندم على ما ترك وقصر بل يعلم أن تلك انفعالات خسيسة تقتضي أفعالا دنيئة ، وأن الحكماء — رضي الله عنهم — قد بينوا رذائلها ، وسطروا الكتب في ذمها ، وأن الأنبياء — صلوات الله عليهم — قد نهوا عنها ، وحذروا منها ، وكتب الله — تعالى وتقدس — ناطقة بجميع ذلك ، مصدقة له .

فأي شوق يحدث للفاضل إلى النقص ، وللعالم إلى الجهل ، وللصحيح إلى المرض ؟ وإنما تلك أعراض تعرض للجهال الذين غايتهم الانهماك في الطبيعة والحواس ، وطلب ملاذها الكاذبة ، لا التماس الصحة ، ولا بلوغ

السعادة ، ولا تكميلُ الفضيلةِ الإنسانية ، ولا مُعْتَبَر بهؤلاء ولا التفاتَ إلى أقوالِهمْ وأفعالِهم»[1] .

مناجاة صوفية

فى غمرة من غمرات العمر سمت نفس أبى حيان عن ترهات الدنيا وأباطيلها ورقيت إلى بارئها تسبحه وتناجيه قائلة :

اللّهمّ إنّا نسألُك ما نسأل لا عن ثقة ببياضِ وجوهِنا عندك ، وحسن أفعالِنا معك ، وسوالفِ إحساننا قِبَلَك ، ولكن عن ثقةٍ بكرمِك الفائض ، وطمعًا فى رحمتِك الواسعة ، نعم وعن توحيدٍ لا يشوبُه إشْراك ، ومعرفةٍ لا يخالطُها إنكار ، وإن كانت أعمارُنا مقصورةً عن غاياتِ حقائقِ التَّوْحيد والمعرفة ، فنسألك أن تردَّ علينا هذه الثّقةَ بك ، فتشمتَ بنا مَن لم تكن له هذه الوسيلةُ إليك ، يا حافظَ الأسرار ، يا مسبلَ الأسْتار ، ويا واهبَ الأعْمار ، ويا منشئَ الأخْبار ، ويا مولجَ اللّيْل فى النهار ، ويا معافى الأخيار ، ويا مُدارِى الأشرار ، ويا منقذَ الأبْرار من النّارِ والعار ، جُدْ علينا بصفحِك عن زَلاّتِنا ، وأنْعِشْنا عند تتابع صرعاتِنا ، وحط رحالَنا معك فى اختلاف سكراتِنا وصحواتنا ، وكن لنا وإن لم نكن لأنفسنا لأنك أوْلَى بنا ، وإذا خِفنا منك فامزِجْ خوفنا منك برجائنا فيك ، وإذا غلب علينا يأسُنا فتلقَّهُ بالأمل فيك ، بشّرْنا عند توجهنا نحوك بالوصول إليك ، متّعْنا بالنظر إلى نور وجهك ، أسْبغْ علينا نعمتَك بما وهبت لنا من توحيدك ، ولا تهجرنا بعد وصلك ، ولا تُبْعدْنا بعد قُرْبك ، ولا تكْرِبْنا بعد روحك ، قد عاديْنا أعداءك فيك ، فلا تشمتهم بنا لتقصيرنا فى حقك ، ووالَيْنا أصفياءك لك فلا تُوحشنامنهم لسَهْونا عن واجبك .

يا هذا ! إن كنت ثاكلاً فنُحْ على من أُصبتَ به ، وإن كنتَ مكروبًا

---

(١) « الهوامل والشوامل » ص ٣٨ – ٣٩ .

بسرٍّ فبُحْ فلعلَّك تشفى غليلك فيه ، وإن كنت طالبًا فجِدَّ فعساك تصلُ إلى بُغْيتك منه ، وإن كنت واجدًا فاحفظ فإنَّك غير واثقٍ من ثباتِ ما ظفرت به ، وتلطَّفْ جهدك حتَّى تقف على مكنون أمْرك، فلعلَّك مستدرجٌ من حيث لا تعلم ، ولعلَّك مرادٌ بالخصوصية وأنت مستكمٌ ، زيِّن وجهك بالصُّورة البهيَّة ، حسِّن أثرك بالنيَّة القويَّة (. . . . .) أنت فى مناط الربوبية فلا تهبطْ إلى قاعِ العبوديَّة ، صانُوك فلا تبتذِلْ ، أعزّوك فلا تذلّ ، أعلوْك فلا تسفلْ ، غسلوك فلا تتوسَّخ ، نقَّوْك فلا تتلطَّخْ ، يسَّروك فلا تتعسَّر ، قرّبوك فلا تتباعد ، أحبُّوك فلا تبتغض ، جدُّوا بك فلا تكسلْ ، استخدموك فلا تتّكل ، أعتقوك فلا تتعبَّد ، أقالوك فلا تتعثّر ، نسبُوك فلا تجحد، جبروك فلا تنكسِرْ ، أنبتُوك فلا تَذْوِ ، حسَّنوك فلا تقبحْ ، حلَّوك فلا تسمجْ ، علَّموك فلا تجهل ، نوَّهوا بك فلا تخملْ ، قوَّوْك فلا تضعفْ ، لطَّفوك فلا تكثفْ ، أسرّوك فلا تنكشفْ ، انتظروك فلا تتوقَّفْ ، أمَّنوك فلا تتخوَّف ، قوَّمُوك فلا تتقصَّف ، ندَّوك فلا تنشف .

يا هذا ! إنَّك إن عرفْت هذه اللغة ، واستخرجتَ ما لك من هذا الديوان وحصلتَ مالك وعليك بهذا الحساب ، أوشك أن تكون من المجذُوبين إلى حظوظِهم ، والرَّاسخين فى علمهم ، والخالدين فى نِعمتِهم ، وإن كنت عن هذه الكتاباتِ عميًّا ، وعن هذه الإشاراتِ أعجميًّا ، طاحتْ بك الطَّوائح ، وناحتْ عليك النَّوائح .

يا هذا ! دعْ ما كان خيرًا عنك ، ومداراةً لك ، وخذ متفهِّمًا ما أنا ممنوٌّ به ومدفوعٌ إليه ، فإن دقَّ عليك فيه لفظ ، أو نبا عنه تحصيل ، فسامحْ ، فالغليلُ أحرُّ من ذلك ، والضرُّ أظهرُ مما هنالك ، نعم يا حبيبى ! دعانى فلمَّا أجبتُ طردنى ، وقرّبنى فلمَّا دعوتُ أبْعدنى ، ومنّانى فلمَّا توقعْتُ حرمنى ، وحكَّمنى فلما اقترحتُ خيبنى ، واستنطقنى فلما نبستُ أخرسنى ، ودلّنى فلما استدللتُ تَوّهنى ، وقال لى : كنْ لى تكُنّى ، وجِدْنى تجدنى ، وأرانى فلما تأمَّلتُ أعمانى ، وأمرضنى فلما استشفيتُه أضْنانى ، فلمَّا دُفعتُ إلى هذه المحارج ،

ضُلِّلت عن طرقِ المخارج ، قلتُ محدِّثًا لنفسى : هذا لِمه ، وفيمَه ، وعلامَه ، فأجّج علىّ منى نارًا لا يُطفأ لهبُها ولا يخمد جمرُها ، ولا ينقطع ..رها ، وقيل لى اقتحم باختيارك (.....) وإلا أصليناك مكرهًا عليها . قلت : نعم أقتحمُ طاعةً وائتمارًا ، ولكن طيِّبوا قلبى بسر أمرى ، وعرّفونى ما بى من حلاوى ومرّى ، فقيل لى : لو أهّلناك لهذا لما أحرقناك بهذا ، من أذن لك بالبحث عمّا طويناه . ومن أباحك المسألة عما رويناه . ومن جرّأك على قرعِ بابٍ مُذْ أغلقناه ما فتحناه . ومن أطمعك فى مرعًى مذ حميناه ما أبحناه . ومن هوّن عليك رفعَ سترٍ مذ أسبلناه ما رفعناه . أتظنُّ أنك شريكُنا فى المُلك ، أو رقيبٌ علينا فى التدبير ، أو قادحٌ فى إرادتنا بالاعتراض . خلقناك عبداً (. . . . .) لتكون ربًّا ، ولولا أنّا نعلمُ من أين أتيت فيما كان منك لأبدناك ، وجعلناك رميمًا فى مغناك[١] .

٢ ـ أبو حيان العالم

رسالة السقيفة

شاء أبو حيان أن يجهر برأيه فى النضال بين السنة والشيعة فى عصره فأدلى به رفيقاً متأنقاً وغرضه الأبعد نكاية ابن العميد والصاحب :

قال أبو عُبَيْدة : فعدتُ إلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وقصصتُ القولَ على غَرِه ، ولم أختزلْ شيئًا من حُلوه ومُره ؛ وذكرت غدوّه إلى المسجد ، فلمّا كان صباحُ يومئذٍ وافى علىّ رضىَ الله عنه ، فخرقَ الجماعة إلى أبى بكر رضى الله عنه فبايعَه ، وقال خيرًا ، ووصف جميلاً ، وجلس زميتًا ، واستأذنه للقيام ونهض فشيّعه عمر رضى الله عنه تكرمةً له ، واستبراءً لما عنده ، فقال له علىّ : ما قعدت عن صاحبكم زُهْدًا فيه ، ولا أتيتُه فَرَقًا منه ، وما أقولُ تَعِلّةً ،

---

(١) الإشارات الإلهية .

وإنى لأعرف مَسْمَى طَرْفى ، ومخْطَى قَدَمى ، ومنزعَ قَوسى ، وموقع سَهْمى ، ولكنى قد أزَمْتُ على فأسى ، ثقةً بالله فى الإدالة فى الدنيا والآخرة . فقال له : عمر : كَفْكِفْ غَرْبَكَ ، واستوقِفْ سِرْبَكَ ، ودعِ العَصَا بلحائها[1] ، والدَّلوَعلى رشائها[2] ، فإنا من خلْفها وورائها ... قدحْنَا أوْرَيْنَا[3] ، وإنْ مَتَحْنَا[4] ، أرْوَيْنَا ، وإن قَرَحْنَا أدْمَيْنَا ، وإن نضحنا أرْبَيْنَا ، ولقد سمعت أماثيلك التى لغوت بها عن صدرٍ أُكِلَ بالجوَى ، ولو شئتُ لقلتُ على مقالتك ما إذا سمعتَه ندمتَ على ما قلتَه ... عمتَ أنك قعدت فى كِسْرِ بيتك لِما وقَذَك به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بفراقه ، أفرسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقَذَك وحدك ولم يقذْ سواك ؟ بل مصابه أعظمُ وأعزُّ من ذلك ، وإن من حق مُصابه ألاَّ يصدع شَمْلَ الجماعة بكلمة لا عِصامَ لها ، ولا يزرى على اختيارها بما لا يؤمَن كَيْدُ الشيطان فى عُقْباها .

هذه العرب حَوْلَنَا ، والله لو تداعت علينا فى مصبح يوم لم نلتق فى ممساه ، وزعمتَ أن الشوق إلى اللحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره ، فمن الشوق إليه نُصْرَةُ دينه ، ومؤازرة أولياء الله تعالى ومعاونتهم فيه . وزعمتَ أنَّك عكفتَ على عهد الله تجمع ما تبدد منه ، فمن العُكوفِ على عهده النَّصيحة لعباده ، والرأفةُ على خلْقه ، وبَذْلُ ما يصلحون به ، ويُرْشَدُون إليه . وزعمتَ أنك لم تعلمْ أن التَّظاهر عليك واقع ، ولا لك عن الحقِّ الذى سيقَ إليك دافع ، فأىَّ تظاهرٍ وقع عليك ، وأى حق لُطَّ دونك ، قد علمت ما قال ... سراً وجهراً ، وما تَغَلَّبت عليك بطناً وظهراً ، فهل ذكرتْك أو أشارت بك ، أو وجدت رضاها عندك ؟

هؤلاء المهاجرون والأنصار من الذى قال بلسانه : إنَّكَ تصلح لهذا الأمر ، أو أومأ بعينه ، أو همْهمَ فى نفسه ؟ أتظنُ أن النَّاسَ قد ضلُّوا من أجلك ،

---

(١) اللحاء : القشرة .

(٢) الرشاء : الحبل .

(٣) أورينا : أشعلنا .

(٤) متح الماء : استقاه واستخرجه من البئر .

أو عادوا كُفَّارًا زُهْدًا فيك ، وباعوا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم تحاملاً عليك ؟ لا والله ، ولكنَّك اعتزلت تنتظر الوحى ، وتتوكَّفُ مناجاة الملك ، ذلك أمر طواه الله عزَّ وجلَّ بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، كأن الأمر معقودٌ بأنْشُوطة[1] ، أو مشدودٌ بأطراف لِيطَة[2] ، كلاَّ والله . إن الغايةَ لمحدَّقة ، وإن الشجرة لمورقة ، ولا عجماءَ بعد حمدِ الله إلاَّ وقد أفصحت ، ولا عجفاءَ إلاَّ وقد سمنت ، ولا بلهاءَ إلاَّ وقد فطنت ، ولا شوكاءَ إلاَّ وقد نفحت .

ومن أعجب شأنك قولُك : لولا سابقُ قول ، وسالفُ عهد ، لاشتفيتُ غيظى ، وهل ترك الدِّينُ لأحد من أهله أن يشفىَ غيظَه بيده ولسانه ؟ تلك حاهليَّة قد استأصل الله شأفتَها ، ودفع عن الناس آفتَها ، واقتلع جُرثومتَها ، وهوَّر ليلها ، وغوَّر سَيْلها ، وأبدل منها الرَّوْحَ والرَّيْحان ، والهُدى والبرهان .

وزعمتَ أنك مُلْجَم ، فلعمرى إنَّ من اتَّقَى الله عزَّ وجلَّ ، وآثر رضاه ، وطلب ما عنده ، أمسك لسانَه ، وأطبق فاه ، وجعل سعيه لما وراه .

قال علىٌّ رضى الله عنه : والله ما بذلتُ وأنا أريد نَكْثَهُ ، ولا أقررتُ بما أقررتُ وأنا أبغى حوَلاً عنه ، وإن أخْسَرَ الناسِ صفقةً عند الله من آثر النفاق واحتضن الشقاق ، وبالله سلوةٌ من كل كارث ، وعليه التوكلُ فى كلِّ الحوادث ، ارجعْ يا أبا حفص إلى مجلسك ناقعَ القلب ، مبرودَ الغليل ، فسيحَ اللِّبان ، فليس وراء ما سمعتَ وقلتَ إلاَّ ما يشدّ الأزر ، ويمنع الأصر ، ويجمع الألفة ، ويرفع الكلفة ، ويوقع الزُّلفة ، بمعونة الله عزَّ وجلَّ وحسن توفيقه : قال أبو عبيدة : وانصرف عمر ، وهذا أصعب ما مر بنا بعد فراق رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] .

---

(١) الأنشوطة : العقدة التى يسهل انحلالها .

(٢) الليطة : قسرة القصبة التى تليط بها أى تلزق .

(٣) « ثلاث رسائل » للتوحيدى ص ٢٣ .

الخطوط العربية

زاول أبو حيان صناعة الوراقة ونسخ الكتب فألم بأصولها وقواعدها واطلع على دقائها وأصنافها وها هو ذا يقول فيها كلمة العالم الخبير :

أنواعُ الخُطوطِ العربيّة : الإسماعيليّ ، والمكّيّ ، والمدنيّ ، والأندلسيّ ، والشّامي ، والعِراقيّ ، والعبّاسيّ . والمشعّب ، والرَّيْحاني ، والمجرد ، والمصريّ ، فهذه هي الخطوطُ العربيةُ التي كان منها ما هو مستعمَلٌ قديمًا ، ومنها قريبةُ الحدوث ، أمّا هذه الطرائقُ المستنبطةُ فهي مرويّةٌ عن الصّحابة حتى اتّصلت بابْن مُقْلَة[1] وياقوت وغيرهم . وهم تفنّنوا فيها بحسب اجتهادِهم .

وكنتُ — أطالَ اللهُ بقاءَك — في مجلس ابن البربري وقد حَفَلَ بأربابِ الأقلام والخطوط ، وصار كلٌّ منهم يُظْهِر مخبّآته من النّوادر .

أنواع الأقلام : فقال أحدُهم : خيرُ الأقلامِ ما استمكن نُضْجه في جِرْمه ، وجفَّ ماؤه في قِشره ، وقُطِعَ بعد إلقاء بزْره ، وصَلُبَ شحمه ، وثقُلَ حجمه .

وقال آخر : إنّ القلمَ المحرف يكون الخطُّ به أضعفَ وأحْلى ، والمستوى أقوى وأصْفَى ، والمتوسط بينهما يجمعُ أحدَ حالَيْهما ، وما كان في رأسه طولٌ يُعِينُ اليدَ الخفيفةَ على سُرْعة الكتابة ، وما قَصُر فبخلافه .

أنواع البَرْي : وقال آخر : البَرْيُ على أربعة أقسام :

الفَتْح : وهو في القَلمِ الصّلْب أكثرُ تقعيرًا ، والرَّخْو أقلّ ، والمعتدل بينها . والنّحْتُ نوعان : نحْت حواشيه ونحْتُ بطنه ، أما حواشيه فيكون مستويًا من جهة السِنّيْن معًا ، ولا يحيفُ على أحد الشّقّيْن فتضعف سنّه ، وتكون شحمةُ القلمِ في بطنه متساويًا ، وأن يكون الشقُّ متوسطًا لجِلْفَة[2] القلم دَقّ أو غَلُظ . وأما الشقّ فباعتبارِ الأقلام إن كان صلبًا ، فيشقُّ أكثر

---

(١) راجع ترجمة أبي علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة في وفيات الأعيان ٢ / ٦١ .

(٢) الجلفة من القلم : من مبراه إلى أسه أومكان بريه .

الجلفة ، وإن كان رخواً يكون مقدار ثلث الجلفة ، وإن كان معتدلاً يتوسط .

وأما القطُّ فأنواع : محرَّف ، ومستوٍ ، وقائم ، ومصوَّب . وأجودُها المحرَّف المعتدل ، ومنهم من يجنَح إلى تدوير القطَّة ويمدُّها ، ويرغب فيها ، وأعنى بالمدَورة أن لا تظهر لها تحريفاً ، وأن يكون وضعُ يدك بالسكّين على الاستواء لا يميلُ إلى جهة بشيء البتَّة والقائم أن يكون استواءُ القشرة والشَّحمة معاً ، والمصوَّب بالنسبة إلى الشَّحْمة أو القشرة غير محمود .

وقال المدقِّق الفاضل الوزير الكاتب أبو على بن مقلة فى وصف القلم : أطِلِ الجلْفة وحسِّنْها وحرِّف القطة وأيْمِنْها ، والقطُّ هو الخطُّ .

معانى الخطّ : والكاتبُ يحتاج إلى سبعة معان : الخطُّ المجودُ بالتَّحقيق ، والمحلَّى بالتَّحْديق ، والمجمَّل بالتَّحْويق ، والمزيَّن بالتخريق ، والمحسَّن بالتَّشْقيق ، والمُجَاد بالتَّدْقيق ، والمميَّز بالتَّفْريق . فهذه أصولُه وقواعدُه المتضمنةُ لفُنُونه وكلُّ قلمٍ يظهر وفروعه ، له العمل على قدره — والورد كِفاء صدره إن شاء الله[1] .

دستور الكتابة

كان أبو حيان منشئاً بليغ الإنشاء يطبع أسلوبه على قواعد مقررة فى ذهنه وخواطره مستمدة من العلم والذوق فتراه يفصح منها ويعدها دستور الكاتب ويغتنم الفرصة ليغمز من حاد عن ذلك الدستور :

قال أبو حيَّان التَّوحيدى فى إحدى مسامراته للوزير أبى عبد الله العارض... إنَّ للنَّفْس أمراضاً كأمراض البَدَن ، إلا أن فضلَ أمراض النفس على أمراض البدَن فى الشر والضَّرر كفضل النفس على البدَن فى الخير، وصاحبُنا[2] مريضٌ عندنا صحيحٌ عند نفسه ، زيف بنقدنا « جيِّد بنقده ، ولو قامت السوقُ على ساقِها ، وتناصفَ المتعاملون فيها ، ولم يقع إكراهٌ فى أخذ ولا إعطاء ، عُرِفَ البهرجُ الذى ضُرِبَ خارج الدار ، والجيِّد الذى ضُرِبَ داخلَ الدار .

---

(١) « ثلاث رسائل للتوحيدى » ص ٢٩ .

(٢) يعنى ابن عباد .

وقال أحمد بن محمد : إذا أنصفنا التزمنا مزيّة العراقيين علينا بالطبع اللطيف والمأخذ القريب ، والسجع الملائم ، واللفظ المونق ، والتأليف الحُلْو ، والسبوطة الغالبة ، والموالاة المقبولة فى السّمع ، الخالبة للقلب العابثة بالروح ، الزائدة فى العقل ، المشعلة للقريحة ، الموقوفة على فضل الأدب ، الدالّة على غزارة المغترف ، النائية عن عادة كثير من السلَف والخَلَف ؛ وابن عبّاد بُلِيَ فى هذه الصّناعة بأشياء كلُّها عليه لا له ، وخاذ لَتُه لا ناصرَتُه ، ومسلمته لا منقذته ، فأوّلُ ما بُلِيَ به أنّه فقد الطّبع ، وهو العَمُود ، والثانى العادة وهى المؤاتية ، والثالث الشغف بالجاسى من اللفظ وهو الاختيار الردىء ، والرابع تتبع الوحشى ، وهو الضلال المبين ، والخامس الذّهاب مع اللفظ دون المعنى ، والسادس استكراه المقصود من المعنى ، واللفظ على النّبوة ، والسابع التعاظُل للمجهول بالاعتراض ، والثامن إلف الرسوم الفاسدة من غير تصفّح ولا فحص ، والتاسع قلة الاتّعاظ بما كان — للثقة الواقعة فى النفس — من الفائت ، والعاشر تنفيق المتاع بالاقتدار فى سوق العزّ ، وهذه كلُّها سبلُ الضّلالة ، وطرق الجهالة . قال : وليس شىءٌ أنفعَ للمنشئ من سوء الظنّ بنفسه ، والرجوع إلى غيره وإن كان دونه فى الدرجة وليس فى الدنيا محسوبٌ إلا وهو محتاجٌ إلى تثقيف ، والمستعين أحزَمُ من المستبدّ ، ومن تفرّد لم يكملْ ، ومن شاور لم ينقصْ ، وقد يُستَعجَمُ المعنى كما يستعجمُ اللفظ ، ويشرد اللفظُ كما يندُّ المعنى ، وينتثر النظم كما ينتظم النثر ، وينحلّ المعقَّد كما يعقَّد المنحلّ .

والمدارُ على اجتلاب الحلاوة المذوقة بالطبع ، واجتناب النّبوة الممجوجة بالسّمْع ؛ والقريحة الصّافية قد تكدر ، والقريحةُ الكدرة قد تصفو ، وشرّ آفات البلاغة الاستكراه ، وأنصحُ نصائحها الرّضا بالعفو . وقال : كان ابن المقفّع يقفُ قلمَه كثيرًا ؛ فقيل له فى ذلك ، فقال : إنّ الكلامَ يزدحمُ فى صدرى فيقف قلمى لأتخيّره .

والكتابُ يُتصفَّح أكثرَ من تصفّح الخطاب ، لأن الكاتب مختارٌ والمخاطب مضطرّ ، ومن يرد عليه كتابُك فليس يعلمُ أسرعتَ فيه أم أبطأت ،

وإنَّما ينظر أصبتَ فيه أم أخطأت ، وأحسنتَ أم أسأت ، فإبطاؤك غير أصابتك كما أنّ إسراعك غير معفّ على غلطك .

قال : هذا كلّه مُفيد، فأين هو من غيره من أصحابنا ؟ قلت فى الجملة هو أبْلَغُ من ابن يوسف[1] ، وأغْزَرُ وأحفظ وأروى وأجم ركيّةً وأعذب موردًا ، وأبعدُ من التّفاوت ، وليس ابن يوسف من ابن عبّاد فى شىء .

فأمّا ابنُ العميد فإنى سمعتُ ابن الجمل يقول : سمعت ابن ثوابة يقول : أوّلُ من أفسدَ الكلامَ أبو الفضل ، لأنّه تخيّل مذهب الجاحظ وظنّ أنّه إن تبعه لحقه ، وإن تلاه أدركه ، فوقع بعيدًا من الجاحظ ، قريبًا من نفسه ، ألا يعلم أبو الفضل أنّ مذهب الجاحظ مدبَّر بأشياء لا تلتقى عند كل إنسان ولا تجتمع فى صدر كلّ أحد : بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ ، وهذه مفاتح قلّما يملكها واحد ، وسواها مغالقُ قلّما ينفكّ منها واحد .

وأمّا ابنه ذو الكفايتين ، فلو عاشَ كان أبلغَ من أبيه ، كما كان أشعرَ منه ؛ ولقد تشبّه بالجاحظ فافتضح فى مكاتبته لإخوانه ، ومجانته فى كلامه ومسائله لمعلّمه التى دلّتنا على سَرَقته ، وغارته وسوء تأتيه ، فى تستّره وتغطيه ، ومن شاءَ حمّق نفسه ، وكان مع هذا أشد الناس ادّعاءً لكل غريبة ، وأبعد الناس من كل قريبة ، وهو نَزْرُ المعانى ، شديدُ الكَلَف باللّفظ ، وكان أحسدَ الناس لمن خطّ بالقلم ، أو بلّغ باللسان ، أو فلج فى المناظرة ، أو (فكه) بالنادرة ، أو أغربَ فى جواب ، أو اتّسع فى خطاب ؛ ولقد لقى الناسُ منه الدواهى لهذه الأخلاق الخبيثة ؛ وقد ذكرتُ ذلك فى الرسالة ، وإذا بيّضت وقفت عليها من أولها إلى آخرها إن شاء الله ؛ وانصرفت[2] .

---

(١) ابن يوسف الذى يريده هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف أحد أعيان الكتاب فى دولة بنى بويه ، تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده ، وهو الذى دس لابن سعدان عند صمصام الدولة حتى سجنه ثم قتله ، وفى الجزء الثانى من اليتيمة نماذج من رسائله .

(٢) « الإمتاع والمؤانسة » ج ١ ص ٦٣ – ٦٧ .

دستور البلاغة

يتصدى أبو حيان هنا للبلاغة فينشر دستورها حتى يتأثره الكتاب والمنشئون ، ويجمع فى ذلك الدستور أقوال العلماء ثم يزيد برأيه فى ذلك العلم .

قال الهندى : أولُ البلاغة أن يكون الخطيبُ رابطَ الجأش ، ساكنَ الجوارح قليلَ الحركات ، خفىَّ اللحظ ، متخيّر اللفظ ، لا يكلمُ الملوكَ بكلام السُّوقة ، وأن يكون فى قوّته التصرف فى كل طبقة .

سُئل ابن حرب عن البلاغة فقال : البلاغةُ أن تجعل بينك وبين الإكثار مشورةَ الاختصار ، وهذا يحتاجُ إلى تفسير ، وقال الرومى ، البلاغةُ هى الاقتضابُ عند البداهة ، والغزارةُ يوم الإطالة .

وقال الأعرابى : البلاغةُ وضوح الدلالة ، وانتهازُ الفرصة ، وحسنُ الإشارة ، وقال الفارسى : البلاغةُ معرفةُ الفصل من الوصل ، وقال إبراهيمُ الإمام : يكفى من حفظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام النَّاطق ، ولا يؤتى النَّاطق من سوء فهم السَّامع ، وهذا الحكمُ من إبراهيم مبْتُور ، لأن الإفهامَ قد يقعُ من الناطق ولا يكونُ بما أفهم بليغًا ، والفهمَ قد يقَع للسَّامع ممن ليسَ ببليغ ولا يكون بليغًا ، وليس اشتراكُهما فى التَّفاهم بلاغةً — البلاغة أن يصيب النَّاطقُ بالطبع الجيد ، والصّناعة المُجتَلَبَة أو بهما وإن ساءَ فهمُ السَّامع لقصور طِباعه ، أو بُعْده عن أسباب الفضيلة ، ومَنْ ذا الذى هجا البليغَ لأن السامعَ لم يفهم ؟ أو هَجا السَّامع لأن الناطق لم يُفهم ، وإنما البليغ الذى يبلغ القصد بأقرب طُرُق الإفهام مع حُسْن الغرض ، وليس أقربُ طرُق الإفهام تقليلَ الحروف واختصارَ المراد . قد يكون هذا ، ولكنْ أقربَ الطرق فى الإفهام أن تكونَ الغايةُ مثالاً للعقل ، ثم يكون المعنى مَسُوقًا إليها ، واللفظ منسوقًا عليها ، فَهِم السَّامع أو قصّر ، ثم ليس هذا المعنى مقصورًا على العربية ، بل هو شائعٌ فى النفوس ، مستمدٌ من العُقول معروفٌ باللغات ،

لكن العربيةَ عندنا أحسنُ الألفاظ مخارجَ ، وأوسعُها مناهجَ ، وأعلقُها بالقلب ، وأخفُّها على اللسان ، وأوْصلُها إلى الآذان ؛ وكلُّ هذه المحاسن تابعةٌ للشَّريعة التى جعلها اللهُ تعالى تمامَ الشرائع ، ومضافةٌ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذى ختم اللهُ عز وجل به الأنبياء والرُّسل جعلنا عز وجل يوم الفَزَع الأكبر فى زُمرته ، كما جعلنا من أمَّته ، ورزقنا شفاعتَه كما ألهمَنا طاعتَهُ بمنِّه وجودِه .

أرى أيدك الله أن أطيلَ الكلامَ فى هذا المعنى ، لعلمى بأنَّ هذا المقدار ، يَهيجك ولا يَشْفيك ، ويُغريك بمعرفة تمامه ولا يُسْليك ، نظام البلاغة وعُقْدتُها والذى عليه المَدار والمحار أن يكون طالبُها مطبوعًا بها ، مفطورًا عليها ، قد أُعِينَ بشهوةٍ فى النَّفس، وأدبٍ من الدرس ، فإنه متى اختلَّ فى أحد الطرفين بدا عَوَارُهُ ، ولصق به عارُه، والآفة فيها من الدُّخلاء [إليها] الذين يستعملون الألفاظ ، ولا يعرفُون موقعَها ، أو يعجبُهم الاتساع ، ويجهلونَ مقدارَه ، أو يروقُهم المَجاز ، ويتعدَّوْن حدوده ، أو يَحْسُن فى حكمِهم التصريحُ ، ولعل الكنايةَ هناك أتمّ أو الإشارةَ فيه أعمّ ، وهذه الخلالُ تجدُها فى قومٍ عدِموا الطبعَ المُنْقاد فى الأول ، وفقدوا المذهبَ المعتاد فى الثانى ، والسرُّ كله أنْ تكونَ ملاطفًا لطبعِك الجيد ، ومسترسلاً فى يد العقل البارع ، ومعتمدًا على رقيق الألفاظ ، وشريف الأغراض مع جزولةٍ فى معرض سهولة ، ورقَّة فى حلاوة بيان ، مع مجانبة المُجتَلَب ، وكراهة المستكرَه ، وركنه الذى يُعوّل عليه ، وكهفه الذى يأوى إليه أن يكونَ السجعُ فى الكلام كالملح فى الطعام ، فإنه متى ظفر منهُ بمقدار الرُّتْبة ، وحسب الكفاية ، حلا منظرُه ، وبَهر بهاؤه ، وسَطَعَ نورُه ، وانتشر ضياؤه ، ومتى زادَ على المقدار ضارعَ كلامَ النِّساء والكهنَة من العرب ، أو كلام المستعربين من العَجَم ، وسأقتصُ لك فنونَ البلاغة اقتصاصًا مجملاً ، تقف به على تفصيلها : اعلم أن الفن الأول منه هو الكلام الذى يَسْنَح به الطبع ، وليس يخلو هذا المطبوع أيضًا من صناعة — والفن الثانى هو الذى يطلب

بالصناعة ، وليس يخلو هذا المصنوع أيضاً من طبع — والفن الثالث هو المسلسل الذى يندرُ فى أثناء المذهبَيْن ، وأمثلة هذه الفنون ثابتة فى هذه النوادر والبصائر ، ومتى أنعمتَ النظرَ عرفتَ الخبر ، ومهما أتيتَ فى هذا الشأن فلا تلهجنَّ بالسَّجْع ، فإنه بعيد المرام إذا طلب الواقع موقعه : والنازل مكانه ، ولا تهجرنَّه أيضاً كلَّه فإنك تعدم شَطْر الحسن ، والذى يجب ألا تعهد فى ذلك ، هو مقدارٌ يجرى مجرى الطِّراز من الثوب ، والعلم من المطرَّف ، والخالِ من الوجه ، والعينِ من الإنسان ، والسَّواد من الحَدَقة . والإشارة من الحركة ، وقد علمت أنه متى كَثُرَتْ الخِيلان فى الوجه ، وغَمَرَتْه كان ترادفُ أجزاء السواد ذاهباً ببهجة تمام الحسن ، وقد يسلسُ السَّجْع فى مكان دون مكان ، والاسترسال أدلّ على الطبع ، والطبع أعفى ، والتكلف مكروه ، والمتكلِّف مُعَنًّى ، والناس بين عاشق للمعانى ، تابع لها ، فالألفاظ تواتيه عفواً ، وكَلِف بالألفاظ والمعانى تعصيه أبداً ، فأما من جمع بين هذه وهذه وكان قيِّماً بمنثورها ومنظومها ، عارفاً باختلاف مواقع تأليفها ، فإنه الحاوى قصبَ الرِّهان ، والمعدودُ فى أفاضل الزَّمان ، فاقصد أيَّدك الله تعالى أن تكون كالصائغ الذى يصب التِّبر فيسكبه ، ثم يصوغه ، ثم ينقشه ، ثم يسوقه ثم يزينه ثم يعرضه[1] .

النظم والنثر

ينظر أبو حيان إلى النظم والنثر نظرة الأستاذ العالم فيتعقب أثر كل منهما فى النفس ويعين له الحدود والشروط :

قال أبو سليمان وقد جرى كلامٌ فى النَّظْم والنَّثْر : النظم أدلُّ على الطبيعة ، لأن النظم من حيِّز التركيب ، والنثر أدل على العقل ، لأن النثر من حيز البساطة . وإنما تقبَّلْنا المنظومَ بأكثر مما تقبَّلْنا المنثور لأنَّا للطبيعة أكثر

(١) « البصائر والذخائر » ١/٣٦٩ .

منا بالعقل ، والوزن معشوق للطبيعة والحس ، ولذلك يفتقرُ له عند ما يعرض استكراه فى اللفظ ، والعقل يطلب المعنى ، فلذلك لا حظ للّفظ عنده ، وإن كان متشوّقًا ، معشوقًا والدليل على أن المعنى مطلوب النفس دون اللفظ الموشّح بالوزن ، المحمول على الضرورة ، أن المعنى متى صوّر بالسّانح والخاطر ووفى الحكم ، لم يُبْلَ بما يقويه من اللفظ الذى هو كاللباس والمعرض والإناء والظّرْف . لكنّ العقلَ مع هذا يتخير لفظًا بعد لفظ ، ويعشق صورةً دون صورة ، ويأنس بوزنٍ دون وزن ، ولهذا شقق الكلام بين ضروب النثر وأصناف النظم وليس هذا للطبيعة ، بل الذى يستندّ إليها ما كان حلْوًا فى السّمْع ، خفيفًا على القلب ، بينه وبين الحقّ صلة ، وبين الصواب وبينه آصرة[1] ، وحكمها مخلوطٌ بإملاء النفس كما أن قَبُول النفس راجعٌ إلى تصويب العقل .

ثم قال : ومع هذا فى النثر ظلٌّ النظم ، ولولا ذلك ما خفّ ولا حلا ، ولا طابَ ولا تحلّى . وفى النظم ظلٌّ من النثر ، ولولا ذلك ما تميّزتْ أشكالُه ، ولا عذبت مواردُه ومصادرُه . ولا بحوره وطرائقه . ولا ائتلفت وصائلُه وعلائقه[2] .

نوادر الحيوان

كان أبو حيان يهوى أن يتأثر الجاحظ فى أسلوب بيانه ثم تأثره فى الكلام على الحيوان :

. . . ثم قرأت عليه نوادرَ الحيوان ، وغرائبَ ما كنت سمعتُه ووجدتُه ، فزاد عَجَبًا وأنا أرويه فى هذا المكان حتى يكونَ تذكرةً وفائدة ، إن شاء الله تعالى :

يقال : إنّ أسنانَ الرجل اثنتان وثلاثون سِنًّا .

وأسْنانَ المرأة ثلاثون سِنًّا .

وأسْنانَ الخَصِيّ ثمانٍ وعشرونَ سِنًّا .

وأسنانَ البَغْلِ أربعٌ وعشرون سِنًّا .

وأسْنانَ الشّاة إحدى وعشرون سِنًّا .

---

(١) آصرة : وشيجة ورباط .

(٢) « المقابسات » ص ٦٠ .

وأسْنَانَ التَّيْس ثلاثٌ وعشرون .

وأسْنَانَ العنز تسع عشرة سِنًّا .

الذى ذُكِرَ من أصنافِ الحيوانِ أنَّه يكتسبُ مَعاشَه ليلاً : البَومةُ والوطواط .

ومن الحيوانِ الوحشىّ ما يستأنسُ سريعًا : الفيل .

ويُحْكَى أن الحيوانَ الذى أسْنانه قليلةٌ عمرُه قصير ، والذى أسنانهُ كثيرة عمرُه طويل .

الفيلُ إذا وُلِدَ نبتت أسْنانُه فى الحال ، فأمَّا أسنانُه الكِبار وأنيابهُ الكِبار فتظهر إذا شَبَّ وكَبِر .

قلبُ جميع الحيوانِ موضوعٌ فى الوسطِ من الصَّدر ما خلا الإنسانَ فإن قلبَه مائلٌ إلى الجانبِ الأيسر .

الأفعى تبيضُ فى رحمها ، ثم يصير هناك حيوانًا .

للأرانبِ فى داخلِ أشْداقِها شعرٌ وكذلك تحتَ أرْجُلِها .

القُنْفُذ فى فيهِ خمسُ أسنان فى عمقه .

الكلبةُ تحملُ وتبقى ستّين يومًا ، وهذا أطولُ ما يكونُ ، ولا تَضَعُ قبلَ أن يتمّ حملُها ستينَ يومًا ، فإن وضعتْ قبلَ ذلك فإنها لا تربّى ولا يبقى لها ولد .

كل ما كان من البيض مستطيلاً محدد الطَّرف فهو يفرّخ الإناث ، وما كان مستديرًا عريضَ الأطراف يفرّخ الذُّكور .

وجُرِّبَ من إناثِ الطَّير أنَّها إذا لم تجلسْ على البيض تمرض[1]

---

(١) « الإمتاع والمؤانسة » ج ١ ص ١٥٩ – ١٦١ .

٣ - أبو حيان الأديب

ا - الأديب الوجدانى :

حرفة الشؤم

كان أبوحيان من الأدباء الذين أودعوا أدبهم نفثات صدورهم فذكرما لقيه فى مهنة نسخ الكتاب ويسميها حرفة الشؤم من عنت الزمان والرجال وهذه قطعة ينفس بها عن نفسه فيما لقيه من طغيان الصاحب بن عباد وسوء معاملته إياه :

. . . قَدَّمَ إلىَّ نجاحُ الخادمُ ، وكان ينظُر فى خزانة كُتُبه ثلاثين مجلَّدةً من رسائله وقال : يقول لك مولاى : انْسَخْ هذا فإنه قد طُلِبَ منه بخُراسانَ . فقلت بعد ارتياء[1] : هذا طويلٌ ، ولكن لو أذنَ لى لخرجْتُ منه فِقَرًا كالغُرَر . وشُذورًا كالدُّرَر ، تدور فى المجالس كالشَّمَّامات والدَّستَنْبَويَهات[2] لو رُقِىَ بها مجنونٌ لأفاقَ . أو نُفِثَ على ذى عاهة لبَرَأ ، لا تُمَلُّ ولا تستغثُّ ، ولا تُعاب ولا تُسْتَرَكُ[3] فرَفَعَ ذلك إليه على وجهٍ مكروه وأنا لا أعلم فقال : طَعَنَ فى رسائلى وعابَها ، ورَغِبَ عن نَسْخِها وأزْرى بها ، والله ليُنْكِرنَّ منّى ما عَرَف ، وليعرفنَّ حظَّه إذا انْصَرَف ، حتى كأنّى طعنتُ فى القرآن ، أو رميتُ الكعبة . . . ، أو عقرتُ ناقةَ صالحٍ . أو سلَحْتُ فى بئر زَمْزَم ، أو قلت : كان النظَّام مأبونًا ، أو كان العلاّف ديصانيًّا ، أو كان الجبَّائى جَبْريًّا ، أو قلت : ماتَ أبو هاشمٍ فى بيت خمَّار . أو كان عبَّاد معلم صبْيان . وما ذنبى ياقوم إذا لم أستَطعْ أن أنْسَخَ ثلاثين مجلَّدةً من هذا الذى يَسْتَحْسِن هذا التكليف حتى أعْذُرَه

(١) ارتياء : تدبر وإمعان ، وفى رواية : ارتياع .

(٢) الشمام : بطيخ كحنظلة صغيرة مخطط بصفرة وخضرة وفارسيته الدستنبويهات رائحته باردة طيبة ملينة جالبة للنوم وهوملين للبطن ، ولعل أبا حيان يزيد من ضرب المثل بها الرغبة فيها والتفكه بها .

(٣) تسترك : تكون ركيكة . وفى رواية : تسترث .

فى لَوْمى على الامتناع ؟ أيَنْسَخ إنسانٌ هذا القَدْرَ وهو يرجو بَعْدَها أن يُمَتِّعَه الله ببَصَره أو يَنْفَعَه ببَدنه ؟ ثم ما ذنبى إذا قال لى : مِنْ أين لك هذا الكلامُ المفوَّف المشُوف(١) الذى تَكْتُبُ به إلىَّ فى الوقت بعدَ الوقت ؟ فقلتُ : وكيفَ لايكون كما وَصَفَ مولانا وأنا أقْطف ثِمارَ رسائله ، وأستَقِى من قَلِيب (٢) علمه ، وأشِيمُ بارقةَ أدبه ، وأرِدُ ساحِلَ بحره ، وأستوكف(٣) قَطْرَ مُزْنِه فيقول : كذَبْتَ وفَجَرْتَ لا أمّ لك ، ومن أين فى كلامى الكُدْيَةَ والشَّحْذُ والتَّضرعُ والاسترحام ؟ كلامى فى السَّماء وكلامُك فى السَّماد(٤) . . .

استنداء الأكف

كان أبو حيان يطمع فى الخلاص من الفقر والبؤس برفد الكبراء والعظماء فكان يستندى أكفهم بالكتب والرسائل وهذه قطعة من رسالته إلى ابن العميد :

. . . حَلَّ بِى الوَيْلُ ، وسالَ بِى السَّيْلُ ، أيْنَ أنا عن مَلِكِ الدُّنيا ، والفَلَكِ الدَّائر بالنَّعْمَى ؟ أين أنا من مَشْرِقِ الخير ومَغْرِبِ الجميل ؟ أيْنَ أنا عن بَدْرِ البُدُورِ وسَعْدِ السُّعُود ؟ أيْنَ أنا عَمَّنْ يرَى البُخْلَ كُفْرًا صَرِيحًا ، والإفْضالَ دِينًا صَحِيحًا ؟ أين أنا عن سماءٍ لا تَفْتُرُ عن الهَطَلان ، وعن بحرٍ لا يقذِفُ إلا باللؤلُؤِ والمَرْجان ؟ أين أنا من فضاءٍ لا يُشَقُّ غُبَارُه ، وعن حَرَمٍ لا يُضامُ جارُه ؟ أين أنا عن مَنْهَلٍ لاصَدَرَ لِفُرَّاطه(٥) ، ولا مَنْعَ لوُرَّادِه ؟ . . . لِمَ لا أقصد بلاده؟ لم لا أقْتَدِح زنادَه ؟ لِمَ لا أنْتَجِع جَنَابَه وأرْعَى مَرَادَه ؟ لِمَ لاأسكُنُ

(١) المفوف : الرقيق . المشوف : المجلو .
(٢) القليب : البئر .
(٣) أستوكف . . أستمطر .
(٤) « معجم الأدباء » مثالب الوزيرين ٣٢٥ .
(٥) الفراط : المتقدمون إلى الماء والكلأ لأنهم لا يرون الصدر لوجود ما يكفيهم .

رَبْعَهُ[١] ؟ لِمَ لا أستدعي نَفْعَهُ ؟ لِمَ لا أخطبُ جودَهُ وأهتصرُ عُودَهُ ؟ لِمَ لا أستمطرُ سَحابَهُ ؟ لِمَ لا أستسقي رَبابَهُ[٢] ؟ لِمَ لا أستميح نَيْلَهُ وأستسحب ذَيْلَهُ ؟ ولا أحُجُّ كَعْبَتَهُ وأستلم رُكْنَهُ ؟ لِمَ لا أصلّي إلى مُقامِه مؤتمًّا بإمامه ؟ لِمَ لا أسبّحُ ببنانه متقدّسًا :

فتًى صِيغَ من ماءِ الشَّبيبةِ وجْهُهُ فألفاظُهُ جُودٌ وأنفاسُهُ مَجْدُ

لِمَ لا أقصد فتًى للجودِ في كفِّهِ من البحرِ عَيْنانِ نضّاختان[٣] ؟ لِمَ لا أمتري[٤] معروفَ :

فتًى لا يُبالي أن يكونَ بجسْمِهِ إذا نالَ خَلَّاتِ الكرامِ شُحُوبُ

لِمَ لا أمدحُ :

فتًى يشتري حُسْنَ المقالِ بروحِهِ ويعلمُ أعقابَ الأحاديثِ في غدِ[٥] ...

شكوى البؤس

وما فتئ أبو حيان يستندى أكف المحسنين ويطمع فى جاه ذوى الجاه رجاء المعونة على حدثان الأيام وجور الزمان فإليك طرفاً فى رسالة بعث بها إلى الشيخ أبى الوفاء المهندس :

خَلِّصْني أيها الرجلُ من التكفُّف ، أنقِذْني من لُبْسِ الفقر ، أطلِقْني من قَيْدِ الضُّرّ ، اشتَرِني بالإحسان ، اعتَبِدْني بالشُّكر ، استَعْمِل لساني بفُنُون المدْح ، اكفِني مؤونةَ الغَداء والعَشاء .

إلى متى الكُسَيْرة اليابسة ، والبُقَيْلة الذاوية ، والقميص المرقّع . . .

---

(١) الربع : المنزل .

(٢) الرباب : السحاب .

(٣) نضاختان : فوارتان غزيرتان .

(٤) أمترى : أستدر وأستخرج .

(٥) «معجم الأدباء» ج ١٥ ص ٣٨ – ٤٠ .

إلى متى التأدُّم بالخبز والزيتون ؟ قد واللهِ بحَّ الحلْق ، وتغيَّر الخُلُق . اللهَ اللهَ فى أمرى ، اجبرْنى فإنّنى مكسور ، اسقِنى فإنّنى صَدٍ [1] أغِثْنِي فإنّنى ملهوف ، شهِّرنى فإنّنى غُفْل [2] حلِّنى فإنّنى عاطِل .

قد أذلّنى السَّفَر من بلد إلى بلد ، وخذلنى الوقوفُ على بابٍ باب ، وتنكّرنى العارف بى ، وتباعدَ عنّى القريب منّى .

أغرّكَ مسكويه حين قالَ لكَ : لقد لقيت أبا حيّان ، وقد أخرجتُه مع صاحبِ البريدِ إلى قَرْميسين [3] ؟ . . .

أيُّها الكريم ارحمْ ، واللهِ ما يكفينى ما يتّصِلُ إلىّ فى كلّ شهر من هذا الرِّزْقِ المقتّر ، الذى يرجع بعد التّقتير والتّيسير إلى أربعينَ درهمًا ، مع هذه المئونة الغليظة ، والسَّفَر الشّاقّ ، والأبواب المُحتجِبة ، والوجوه المقطّبة ، والأيدى المسمّرة ، والنفوس الضّيّقة ، والأخلاق الدّنيئة . . .

ذكِّرِ الوزيرَ أمرِى ، وكرِّرْ على أذنه ذِكْرِى ، وأمْلِ عليه سورةً من شُكْرِى ، وابعثْه على الإحسانِ إلىّ .

افتحْ عليه بابًا يُغْرِى الرّاغبَ فى اصطِناعِ المعروف ، لا يستغنى عن المرغب ، والفاعل للخيرِ لا يستوحِشُ من الباعثِ عليه .

أنفِقْ جاهَكَ فإنّه بحمدِ اللهِ عريض ، وإذا جُدْتَ بالمالِ فجُدْ أيضًا بالجاهِ فإنّهما أخوان [4] .

---

(١) صد : عطشان .

(٢) غفل : خامل الذكر .

(٣) قرميسين : بلد قرب الدينور بين همذان وحلوان .

(٤) « الإمتاع والمؤانسة » ج ٣ ص ٢٢٦ — ٢٢٨ .

يأس وقنوط

كان أبو حيان قد أحرق كتبه فى آخر عمره لقلة جدواها وضناً بها على من لا يعرف قدرها بعد موته فكتب إليه القاضي أبو سهل على بن محمد يعذله على صنيعه فأجابه أبو حيان يعتذر من ذلك :

. . . وَافَانِى كتابُكَ غيرَ مُحتَسَبٍ ولا متوقَّعٍ ، على ظمأٍ بَرَّحَ بِى إليه ، وشكرتُ اللهَ تعالى على النعْمَةِ به علىّ ، وسألتُه المزيدَ من أمثالِه الذى وصفْتَ فيه بعد ذِكْرِ الشَّوْقِ إلىّ ، والصَّبابةِ نحوى ما نال قلبَكَ والْتَهَبَ فى صَدْرِكَ من الخَبَرِ الذى نَمَى إليكَ فيما كانَ منّى من إحْراقِ كُتُبِى النَّفِيسة بالنَّارِ ، وغَسْلِها بالماء فعجبت من انْزِواءِ وَجْهِ العُذْرِ عنكَ فى ذلكَ ، كأنَّكَ لم تقرأ قولَه جلّ وعزّ : « كلُّ شىءٍ هالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ لَهُ الحُكْمُ وإليه تُرْجَعُونَ » وكأنَّكَ لم تأبَهْ[1] لقوله تعالى : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فانٍ » وكأنَّكَ لم تَعْلَمْ أنَّه لا ثباتَ لشىءٍ من الدُّنْيا وإن كانَ شريفَ الجَوْهَرِ ، كريمَ العُنْصرِ ما دامَ مُقَلَّبًا بيدِ اللَّيْلِ والنَّهارِ ، معروضًا على أحداثِ الدَّهْرِ وتعاوُدِ الأيَّامِ . ثم إنى أقول : إنْ كانَ أيَّدَكَ اللهُ قد نَقَبَ خُفَّكَ ما سمعتَ ، فقد أدْمَى أظَلِى[2] ما فعلت ، فَلْيَهُنْ عليكَ ذلكَ ، فما انبرَيْتُ له ، ولا اجْتَرَأْتُ عليه حتَّى استَخَرْتُ اللهَ عزّ وجلّ فيه أيامًا ولياليَ ، وحتَّى أوْحَى إلىّ فى المنامِ بما بَعَثَ راقِدَ العَزْمِ ، وأجَدَّ فاتِرَ النيَّةِ ، وأحْيَا ميِّتَ الرَّأى ، وحثّ على تنفيذِ ما وَقَعَ فى الرَّوْعِ ، وتريَّعَ[3] فى الخاطِرِ . . .

ومِمَّا شَحَذَ العَزْمَ على ذلك ، ورَفَعَ الحِجاب عنه ، أنِّى فقدتُ ولَدًا نَجِيبًا ، وصديقًا حَبِيبًا ، وصاحِبًا قريبًا ، وتابعًا أديبًا ، ورئيسًا مُنِيبًا ،

---

(١) تأبه : تكترث .
(٢) الأظل : باطن الإصبع .
(٣) تريع : تحير .

فشق علي أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها، فإن قلت: ولم تسمهم بسوء الظن، وتقرع جماعتهم بهذا العيب؟ فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة، فما صح لي من أحدهم وداد، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم . . .

وبعد فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم، ويؤخذ بهديهم ويعشى إلى نارهم، منهم: أبو عمرو بن العلاء، وكان من كبار العلماء، مع زهد ظاهر، وورع[1] معروف، دفن كتبه في بطن الأرض فلم يوجد لها أثر.

وهذا داود الطائي، وكان من خيار عباد الله زهداً وفقهاً وعبادة، ويقال له تاج الأمة، طرح كتبه في البحر وقال يناجيها: نعم الدليل كنت، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول، وبلاء وخمول.

وهذا يوسف بن أسباط، حمل كتبه إلى غار في جبل، وطرحه فيه، وسد بابه، فلما عوتب على ذلك قال: دلنا العلم في الأول، ثم كاد يضلنا في الثاني، فهجرناه لوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل ما أردناه.

وهذا أبو سليمان الداراني، جمع كتبه في تنور وسجرها[2] بالنار

---

(١) الورع : التقوى .
(٢) سجرها : أحماها على النار .

ثم قال : والله ما أحرقتُك حتى كدتُ أحترقُ بك .

وهذا سفيان الثوريّ ، مزّقَ ألفَ جزء ، وطيّرها في الريح وقال : ليت يدي قُطعتْ من ها هُنا بل من ها هُنا ولم أكتبْ حرفاً .

وهذا شيخُنا أبو سعيد السيرافي ، سيد العلماء قال لولده محمّد : قد تركتُ لك هذه الكتُبَ تكتسبُ بها خيرَ الأجَل ، فإذا رأيتَها تخُونُكَ فاجعَلْها طُعْمةً للنّار .

وماذا أقولُ وسامعِي يصدّقُ أنّ زماناً أحوَجَ مثْلي إلى ما بلغك ، الزّمانُ تدْمعُ له العيْنُ حزْناً وأسى ، ويتقطّعُ القلبُ غيْظاً وجوًى وضنًى وشجًى (١) . . .

ب — الأديب الاجتماعي :

الصداقة والصديق

لأبي حيان نظرات في المجتمع الذي عاش فيه سجلها ووصفها في كثير من آثاره قال يصف الصداقة والصديق :

الصّداقةُ التي تدورُ بين الرّغبة والرّهْبة ، شديدةُ الاستحالة ، وصاحبُها من صاحبه في غُرور ، والزّلةُ فيها غير مأمونة ، وكسْرُها غيرُ مجبور ، فأما الملوكُ فقد جلّوا عن الصّداقة ، ولذلك لا تَصحّ لهم أحكامُها ولا تُوفى بعهودها ، وإنّما أمورُهم جاريةٌ على القُدْرة والقَهْر والهَوَى والشائق والاستعلاء والاستخفاف ، وأمّا خدَمُهم وأولياؤهم فعلى غاية الشبه بهم ، ونهاية المشاكلة لهم ، لانتشابهم بهم وانتسابهم إليهم ، وولُوع طورهم بما يصدر عنهم ، ويردّ عليهم . وأمّا أصحابُ الضّياع فليسوا من هذا الحديث في عير ولا نفير ، وأمّا التجار فكسبُ الدّوانيق سدّ بينهم وبين كلّ مروءة ، وحاجزٌ لهم عن كلّ ما يتعلّقُ بالفتوة . وأمّا أصحاب الدين والورع ، فعلى قلتهم ، ربّما خلَصَتْ لهم الصّداقةُ لبنائهم إيّاها على التقوى ، وتأسيسها على أحكام الحرج ،

(١) « معجم الأدباء » ج ١٥ ص ١٧ — ٢٢ .

وطلب سلامة العُقْبَى . وأمَّا الكتَّاب وأهل العلم فإنهم إذا خلَوْا من التَّنافس والتَّحاسُد والتَّمارى والتَّماحُك ، فربما صحَّت لهم الصَّداقةُ ، وظهر منهم الوفاء ، وذلك قليل ، وهذا القليلُ من الأصل القليل ، وأمَّا أصحابُ المذاب والتطفيف ، فإنَّهم رجرجةٌ بين النَّاس ، لا محاسنَ لهم فتُذْكر ، ولا مساعى فتُنْشَر ، ولذلك قيل لهم هَمَج ورَعاع وأوباش وأوناش ولفيف وزعانف وداصة وسُقَّاط وأنذال وغوغاء ، لأنهم من دقة الهِمَم ، وخَساسة النفوس ، ولؤم الطَّبائع على حالٍ لا يجوز أن يكونوا معها فى حومة المذكورين وعِصابة المشهورين ، فلهذه الأمور الحائلة عن مقارّها ، الزائغة إلى غير جهاتها ، عللٌ وأسباب ، او نَفَّسَ الزَّمانُ قليلاً لكنَّا ننشَط لشرحها ، وذكرِ ما قد أتى النسيان عليه ، وعَفَّى أثره الإهمال ، وشَغَل عنه طلبُ القوت ، ومن أين يَظْفَرُ بالغَدَاء من كان عاجزًا عن الحاجة ، وبالعَشَاء من كان قاصرًا عن الكفاية ، وكيف يُحْتَالُ فى الحصول على طِمْرَيْن[1] للسِّتْر لا للتجمُّل ؟ وكيف يهرُب من الشرّ المقبل ، وكيف يُهرول وراء الخير المُدْبِر[2] ، وكيف يُستعان بمن لا يُعين ، ويُشْتكى إلى غير رحيم ، ولكن حالَ الجَريض دون القريض ، ومن العجب والبديع أنَّا كتبنا هذه الحروف على ما فى النفس من الحُرق والأسف والحسرة والغيظ والكمد والوَمَد ، وكأنى بغيرك إذا قرأها تقبَّضتْ نفسُه عنها ، وأمر نقده عليها ، وأنكر علىَّ التطويل بها ، وإنما أشرتُ بهذا إلى غيرك لأنك تَبْسُطُ من العذر ما لا يجود به سواك ، وذاك لعلمك بحالى واطِّلاعك على دُخْلَتى ، واستمرارى على هذا الإنفاض والعَوَز اللذيْن قد نقضا قوّتى ، ونكثا مِرَّتى ، وأفسدا حياتى ، وقرنانى بالأسى ، وحجبانى عن الأسى ، لأنى فقدتُ كل مُؤنِسٍ وصاحب ، ومرفق ومشفق ، والله لربَّما صلَّيتُ فى الجامع فلا أرى إلى جنبى من يصلِّى معى ، فإن اتَّفق فبقَّال أو عصار أو نَدَّاف أو قصَّاب ، ومن إذا وقف إلى جانبى أسدرنى

---

(١) الطمر : الثوب البالى .

(٢) المدبر : الذاهب .

بصُنانه ، وأسكرني بنتنه ، فقد أمسيتُ غريبَ الحال ، غريبَ اللفظ ، غريبَ النِّحْلة ، غريبَ الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصّمت ، ملازماً للحَيْرة ، محتملاً للأذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقعاً لما لا بدّ من حلوله ، فشمسُ العمر على شفا ، وماءُ الحياة إلى نُضوب ، ونجم العيش إلى أفول ، وظلُّ التلبُّث إلى قلوص . . . وقبل كل شيء ينبغي أن نثق بأنه لا صديقَ ولا من يتشبّه بالصديق ، ولذلك قال جميل بن مرة في الزمان الأول حين كان الدّين يعانق بالإخلاص والمروءة تتهادى بين الناس ، وقد لزم قعر البيت ، ورفض المجالس ، واعتزل الخاصة والعامة ، وعُوتب في ذلك فقال ، لقد صحبتُ الناس أربعين سنة فما رأيتُهم غفروا لي ذنباً ، ولا ستروا لي عيباً ، ولا حفظوا لي غيباً ، ولا أقالوا لي عثرةً ، ولا رحِمُوا لي عَبْرة ، ولا قبلوا مني مَعْذرةً ، ولا فكّوني من أسرة ، ولا جبروا مني كسرة ، ولا بذلوا لي نصرة ، ورأيت الشغلَ بهم تضييعاً للحياة ، وتباعداً من الله تعالى ، وتجرُّعاً للغيظ مع الساعات ، وتسليطاً للهوى في الهنَات بعد الهنَات[1] .

أحوال المجتمع

من آثار أبي حيان في البيئة والعصر أنه كثيراً ما ألمع ولمح توخياً لغرض مقصود وهدف يسعى إليه. فإن تكلم على الماضي عنى الحاضر وإن روى الحوادث وذكر الأشخاص فإنما يؤرخ حقبة يعيش فيها ففي ليلة من الليالي التي سامر فيها الوزير أبا عبد الله العارض يقول :

. . . فحكَيَتْ أنّهُ لمّا تقلّد كسْرى أنوشروان مَمْلكتَه ، عكَفَ على الصَّبُوح والغَبُوق[2] ، فكتبَ إليه وزيرُه رُقْعَةً يقولُ فيها : إنَّ في إدْمان الملك ضرَرًا على الرعيّة ، والوجهُ تخفيفُ ذلك والنّظرُ في أمورِ المملكة . فوقّعَ على ظَهْر الرُّقْعَةُ بالفارسيَّة بما ترجمَتُه : يا هذا ! إذا كانت سُبُلُنا آمِنَةً وسيرَتُنا عادِلَةً ، والدُّنيا باسْتِقامَتِنا عامِرَةً ،

(١) « الصداقة والصديق » ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٩ .
(٢) الصبوح : شرب الخمر صباحا . والغبوق : شربها مساء .

وعُمَّالنا[1] بالحقّ عامِلَة ، فلِمَ نَمْتَنِعُ فَرْحَةً عاجِلة ؟

قالَ : مَنْ حدَّثَك بهذا ؟ قلتُ : أبو سليمان شيخُنا ، قال : فكيف كانَ رِضاهُ عن هذا الملك فى هذا القَوْل ؟ فقلتُ : اعترضَ فقال : أخطأ فى وجُوه : أحَدُها أنّ الإدْمانَ إفراطٌ والإفراطُ مَذْمُوم ، والآخَرُ أنّه جَهِلَ أنّ أمْنَ السَّبيل ، وعَدْلَ السِّيرة ، وعمارةَ الدُّنيا ، والعملَ بالحقّ ، متى لم يُوكَّلْ بها الطَّرْفُ السَّاهر ، ولم تُحَطْ بالعناية التّامة ، ولم تُحْفَظ بالاهتمام الجالب لدَوام النِّظام ، دَبّ إليها النَّقْصُ ، والنَّقْصُ بابٌ للانتقاضِ مزعْزِعٌ للدّعامة ، والآخرُ أنّ الزّمانَ أعَزُّ من أن يُبْذَلَ فى الأكل والشُّرْبِ والتلذُّذ والتمتُّع ، فإنّ فى تكميلِ النَّفْس النّاطقة باكتساب الرُّشْد لها ، وإبعادِ الغيّ عنها ، ما يستوعِبُ أضْعافَ العُمْر ، فكيفَ إذا كان العمرُ قصيرًا ؟ وكانَ ما يدعو إليه الهوى كبيرًا ؟ ! والآخرُ أنّهُ ذَهَبَ عليه[2] أنّ الخاصّةَ والعامّةَ إذا وقفتْ على استِهْتار المَلِك باللّذّات ، وانْهماكِهِ فى طلَب الشّهوات ، ازدَرَتْهُ واستهانَتْ به ، وحدَّثَتْ عنه بأخلاق الخنازير ، وعاداتِ الحمير ، واسْتِهانَةُ الخاصّة والعامّة بالنّاظِر فى أمْرها ، والقَيِّم بشأنها ، متى تكرَّرتْ على القلوب تطرَّقَتْ إلى اللسان ، وانتشرت فى المحافِل ، والتَفَتَ بها بعضُهم إلى بعض ، وهذه مَكْسَرَةٌ للهَيْبَة ، وقِلّةُ الهَيْبَة رافعةٌ لِلْحِشْمة ، وارتفاعُ الحِشْمَةِ باعِثٌ على الوَثْبَة ، والوَثْبَةُ غير مأمونةٍ من الهَلَكَة . . .

فقالَ أدامَ اللهُ أيّامَه : هذا كلامٌ كاف شاف . وقال بعد ذلك : حدّثْنى عمّا تَسْمَعُ من العامّة فى حديثنا :

قلتُ : سمعتُ بباب الطّاق قومًا يقولون : اجْتَمَعَ النّاسُ اليومَ على الشّطّ ، فلما نَزَلَ الوزيرُ ليركبَ المركبَ ، صاحُوا وضَجُّوا ، وذكروا غلاءَ القُوت ، وعوزَ الطّعام ، وتعذُّرَ الكَسْب ، وغَلَبَةَ الفقر ، وتهتُّك

---

(١) العمال : الحكام .

(٢) ذهب عليه : غاب عنه .

صاحب العيال ، وأنه أجابهم بجواب مر مع قطوب الوجه، وإظهار التبرم بالاستغاثة : بعد لم تأكلوا النخالة .

فقال : والله ما قلت هذا، ولا خطر لي على بال ، ولم أقابل عاقة جاهلة ضعيفة جائعة بمثل هذه الكلمة الخشناء ، وهذا يقوله من طرح الشر[١] ، وأحب الفساد ، وقصد التشنيع علي ، والإيحاش مني وهو هذا العدو الكلب «يعني ابن يوسف» كفاني الله شره ، وشغله بنفسه ، ونكس كيده على رأسه ، والله لأنظرن لها وللفقراء بمال أطلقه من الخزانة ، وأرسم ببيع الخبز ثمانية بدرهم ، ويصل ذلك إلى الفقراء في كل محلة على ما يذكر شيخها، ويبيع الباقون على السعر الذي يقوم لهم ، ويشتريه الغني الواجد ، ففعل ذلك ، أحسن الله جزاءه ، على ما عرفت وشاهدت ، وأبلغته بنشر الدعاء له في الجوامع والمجامع ، بطول البقاء، ودوام العلاء ، وكبت الأعداء ، ونصر الأولياء[٢] . . .

ج ــ الأديب الوصاف :

صورة الصاحب بن عباد

كان أبو حيان أديباً مصوراً تفيض آثاره بصور الرجال والأشياء ، وهذه صورة من صوره :

قلت إن الرجل كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسان ، قد نتف من كل أدب خفيف أشياء ، وأخذ من كل فن أطرافاً ، والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة ، وكتابته مهجنة بطرائقهم، ومناظرته مشوبة[٣] بعبارة الكتاب، وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين في أجزائها : كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد ، وليس عنده بالجزء الإلهي خبر ، ولا له فيه عين ولا أثر ، وهو حسن القيام بالعروض والقوافي ، ويقول الشعر ، وليس

(١) طرح الشر : ألقاه في القلوب .
(٢) «الإمتاع والمؤانسة» ج ٢ ص ٢٤ – ٢٦ .
(٣) مشوبة : مخلوطة .

بذاك ، وفى بديهته غزارةٌ . وأمَّا رَوِيَّتُه فخَوَّارة ، وطالعُهُ الجوزاء ، والشِّعْرَى[١] قريبةٌ منه ، ويتشيَّع لمذهب أبى حنيفة ومقالة الزَّيديَّة ، ولا يرجعُ إلى الرقَّة والرأفة والرحمة . والناسُ كلُّهم مُحْجِمون عنه لجُرْأته وسَلاطته واقتداره وبَسْطته ، شديد العقاب طفيفُ الثَّواب ، طويلُ العتاب ، بذىءُ اللسان ، يُعطِى كثيرًا قليلا[٢] ، مغلوبٌ بحرارة الرأس ، سريعُ الغضب ، بعيدُ الفيئة قريب الطِّيرة ، حسودٌ حقودٌ حديد ، وحسده وقْف على أهل الفضل ، وحقدُه سارٍ إلى أهل الكفاية . أمَّا الكتَّاب والمتصرِّفون فيخافون سطوته ، وأمَّا المنتجِعون[٣] فيخافون جَفْوته ، وقد قتل خلقًا ، وأهلك ناسًا ، ونَفَى أمة نخوةً وتعنُّتًا وتجبُّرًا وزهوًا ، وهو مع هذا يخدعه الصَّبِىّ ويَخْلبه الغبِىّ ، لأن المدخل عليه واسعٌ ، والمأتى إليه سَهْل ، وذلك بأن يُقال : مولانا يتقدَّم بأن أُعارَ شيئًا من كلامه ، ورسائل منثوره ومنظومه ، فما جبت الأرضَ إليه من فَرْغانَةَ ومصر وتفليسَ إلا لأستفيدَ كلامَه وأفْصُحَ به وأتعلَّم البلاغة منه ، لكأنما رسائل مولانا سُوَر قرآن ، وفِقَرُهُ فيها آياتُ فرقان ، واحتجاجُه من ابتدائها إلى انتهائها برهانٌ فوقَ بُرْهان ، فسبحانَ من جمع العالَم فى واحِد ، وأبْرزَ جميع قدرته فى شخص ، فيلين عند ذلك ويذوب ويَسْلَهِى عن كل مهمٍّ له ، وينسى كلَّ فريضةٍ عليه ، ويتقدَّم إلى الخازن[٤] بأن يخْرج إليه رسائلَه مع الورَق والوَرِق ، ويسهل له الإذْنَ عليه ، والوصول إليه ، والتمكّن من مجلسه فهذا هذا .

ثم يعمَلُ فى أوقاتٍ كالعيد والفصل شعرًا ، ويدفعه إلى أبى عيسى بن المنجِّم ، ويقول : قد نحلتُك هذه القصيدة ، امدحْنى بها فى جُمْلة الشعراء وكن الثالثَ من الهَمَج المنشدين ، فيفعل أبو عيسى — وهو بغدادىّ محكَّك ، قد شاخ على الخدائع وتحنَّك ، وينشد فيقول له عند سَماعه شعرَه فى نفسه ،

---

(١) الشعرى : كوكب فى الجوزاء .
(٢) أى يعطى الكثير القليل .
(٣) المنتجعون : طالبوا النوال وهو من انتجع الكلأ إذا طلبه رائداً .
(٤) تقدم إليه بكذا : أمره .

ووصفه بلسانه، ومدحه من تحبيره : أعِدْ يا أبا عيسى ، فإنك والله مُجيد ، زِدْ يا أبا عيسى والله، قد صفا ذهنُك ، وزادت قريحتُك ، وتنقحت قوافيك ، ليس هذا من الطراز الأول حين أنشدتنا فى العيد الماضى، مجالسنا تُخَرِّج الناس وتَهَبُ لهم الذكاء، وتزيد لهم الفِطْنة وتحوِّل الكَوْدَنَ[1] عتيقًا ، والمحمَّرَ جَوادًا ، ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بجائزة سنيَّة. وعطيَّة هنيَّة ، ويغيظ الجماعة من الشعراء وغيرهم ، لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يَقْرِض مصراعًا ، ولا يَزِنُ بيتًا ، ولا يذوقُ عَرُوضًا[2] .

د ــ الأديب اللغوى :

تَفْعال وتِفْعال

تطرق أبو حيان إلى كل فن من فنون القول وجال جولات موفقة فى مختلف الموضوعات ومنها مفردات اللغة وما يقوم بين اللفظ الواحد منها من فروق ودقائق وهذا بحث من أبحاثه فى اللغة :

فلمَّا عدتُ إلى المجلس قال : ما تَحْفَظُ فى تَفْعال وتِفْعال فقد اشْتَبَها؟ وفَزِعْتُ[3] إلى ابن عُبَيْد الكاتب فلم يكن عنده مَقْنَع ، وألقيتُ على مِسْكَوَيْهِ فلم يكن له فيها مطْلَع ، وهذا دليلٌ على دُثُورِ الأدب ، وبَوارِ العِلْم ، والإعراضِ عن الكَدْحِ فى طلبه فقلت :

قال شيخُنا أبو سعيد السِّيرافىُّ الإمام، نَضَّرَ اللهُ وجهه : المصادرُ كلُّها على تَفْعال بفتح التاء، وإنما تجىء تِفعال فى الأسماء وليس بالكثير . قال : وذكرَ بعضُ أهلِ اللغة منها ستَّةَ عشرَ اسمًا لا يوجدُ غيرُها. قال: هاتِها . قلت : منها التِّبْيان والتِّلْقاء ومرَّ تِهْواءٌ من اللَّيْل، وتِبْراك وتِعْشار وتِرْباع وهى مواضِع ، وتِمْساح للدَّابَّة المعروفة ، والتِّمْساح الرجل الكذَّاب أيضًا ،

(١) الكودن : البرذون .
(٢) « الإمتاع والمؤانسة » . ج ١ ص ٥٤ .
(٣) فزع إليه : التجأ .

وتِجْفاف وتِمْثال وتِمْراد بيت الحَمَام ، وتِلْفاق وهو ثوبان يُلْفَقان ، وتِلْقام : سريعُ اللَّقْم .

ويقال : أتت النَّاقةُ على تِضْرابِها أى على الوقتِ الذى ضَرَبها الفحلُ فيه ، وتِضْراب ، كثيرُ الضَّرب وتِقْصار وهى المِخْنَقَة ، وتِنْبال وهو القصير .

قال : هذا حَسَن ، فما تقولُ فى تَذْكار ؟ فإنَّ الخوضَ فى هذا المثال إنَّما كان من أجلِ هذا الحَرْف ، فإنَّ أصْحابَنا كانوا فى مجلسِ الشَّراب فاختلفوا فيه ؟ فقلتُ : هذا مَصْدَرٌ وهو مفتوح .

ثم قال : اجمع لى حُروفًا نظائرَ لهذا فى اللغة ، واشْرَحْ ما نَدَرَ منها وعَرَض الشَّكُّ لكثيرٍ من النَّاس فيها .

فقلت : السَّمعَ والطَّاعةَ مع الشَّرَف بالخدمة[1] . . .

سراويل

وهذا بحث آخر فى اللغة وعلم الصرف و جموع الألفاظ :

وقال الوزيرُ أدامَ اللهُ أيَّامَه : سراويل يُذَكَّرُ أم يؤنَّثُ ، ويُصْرَفُ أم لا ؟

فكان الجوابُ : أنَّ علىَّ بن عيسى حدَّثَنا عن شيخه ابن السراج قال :

سألتُ المبرِّد فقلتُ : إذا كان الواحدُ فى صيغةِ الجَمْع ما يُصْنَعُ به فى الصَّرْف فى مثل : شَعَرُهُ هَرَاميل ، وهذه سَراويل وما أشْبَهَه ، فقال : ألْحِقْه بالجمع فامْنَعْه الصَّرفَ لأنَّه مثلُه وشبيهُه .

قال : وسألتُ أحمدَ بن يحيى عن ذلك فقال : أخبرنا سَلَمَةُ عن الفَرَّاء قال : ألْحِقْه بأحمد فامْنَعْه الصَّرْفَ فى المعرفة ، واصْرِفْه فى النكرة حتَّى يكون بين الواحدِ والجمع فرق .

---

(١) « الإمتاع والمؤانسة » ج ٢ ص ٢ و ٣ .

وسأل فقال : ما واحدُ المناخيبِ والمناجيبِ وما حكمُهما ؟

فكان من الجواب : واحدُ المناخيب مِنْخَاب ، يُمْدَح به ويُذَم ، فإذا كان مدحاً فهو مأخوذٌ من النَّخْب وهو الاختيار ، وإذا كان ذماً فهو مأخوذٌ من النَّخْبَة وهى الاست. قال : وهكذا المِنْجابُ يكون مَدْحاً وذماً ، فإذا كان مَدْحاً فهو مأخوذٌ من الانْتِجاب ، وهو الاختيار ، وإذا كان ذماً فهو مأخوذٌ من النَّجَب وهو قِشْرُ الشَّجَر [1] . . .

---

(١) « الإمتاع والمؤانسة » ج ٢ ص ١٩٦ و ١٩٧ .